عودة

إلى أسباب أحداث
القرن التاسع عشر في جبل لبنان

عودة

إلى أسباب أحداث
القرن التاسع عشر في جبل لبنان

أسامه كامل أبو شقرا

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2017م – 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2368-7

جميع الحقوق محفوظة

توزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

المقدمة..... 9

لمحة عن الإمارة اللبنانية 13

أولاً: موقعها 13

ثانيًا: أهمية موقعها.....17

1 – الشهادة الأولى: 17

2 – الشهادة الثانية: 18

3 – الشهادة الثالثة:.....18

4 – الشهادة الرابعة: 19

5 – الشهادة الخامسة: 20

ثالثًا: نشأتها وتطورها.....21

رابعًا: سكانها الموحدون الدروز 23

خامسًا: سكانها المسيحيون الموارنة.....25

سادسًا: العيش بوئام فيما بينهم حتى أوائل القرن التاسع عشر 27

1 – الشهادة الأولى: ما قاله الشيخ ناصيف اليازجي.....27

2 – الشهادة الثانية: قول يوسف إبرهيم يزبك محرر مجلة "أوراق لبنانية" 28

3 – الشهادة الثالثة: رسالة البابا بيوس السابع.....29

4 – الشهادة الرابعة: ما جاء في كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام" 31

5 – الشهادة الخامسة: ما قاله يوسف خطار أبو شقرا، المتوفى في العام 1905.....31

سابعًا: نظام الحكم العثماني.....32

ثامنًا: الامتيازات الخاصة بالأجانب وغير المسلمين 33

نبذة موجزة عن أحداث القرن التاسع عشر عامة..... 37

أولًا: بدايتها مع الصراع بين البشيرين 37
ثانيًا: الاحتلال المصري لسوريا..... 39
ثالثًا: حرب اللجاه في جبل حوران..... 40
رابعًا: الثورة على المصريين 42
خامسًا: أحداث 1841–1860 ونظاما القائم مقاميتين والمتصرفية 46

أسباب أحداث القرن التاسع عشر (1841–1860)..... 49

أولًا: خطأ المؤرخين 49
ثانيًا: في الأسباب 50
أ – العوامل النفسية:..... 53
1 – الحزبية القبلية وما تلاها: 53
2 – طبيعة العرب بالانتماء الديني: 54
3 – اعتياد اللبنانيين على القتال والتقاتل:..... 55
4 – الصراع الطبقي:..... 56
5 – نتائج الصراع بين البشيرين:..... 57
6 – نتائج حرب اللجاه في جبل حوران: 58
7 – اختلاف شعور المسيحيين نحو الأتراك عنه عند الدروز: 59
8 – اقتناع الموارنة بأنهم فرنسيون وتبعيتهم لفرنسا: 60
9 – اقتناع الدروز بنية طردهم من جبالهم ومن الإمارة التي أسسوها ودور الإنكليز في استمالتهم وإثارة حقدهم ومدهم بالسلاح: 62
10 – تأثير الغرب:..... 66
ب – العوامل الأخرى:..... 67
1 – سياسة المصريين وطمع محمد علي باشا: 67
2 – سياسة الأمير بشير الشهابي الثاني:..... 74
3 – الإرساليات الأجنبية والإكليروس والمدارس الدينية:..... 83
4 – سياسة فرنسا: 88
5 – وجود السلاح بأيدي اللبنانيين:..... 98

6 – سياسة الأمير بشير الثالث: 100
7 – ضعف السلطنة العثمانية: 101
8 – صراع الأوروبيين فيما بينهم وعلى تقسيم وتقاسم أملاك السلطنة: ... 102
9 – معارضة أوروبا قيام دولة جديدة وقوية في الشرق الأدنى: 105
10 – التدخل الأجنبي عامة: 110
11 – الصراع الفرنسي البريطاني عامةً: 115
12 – الصراع الفرنسي البريطاني على قناة السويس: 120
13 – الصراع البريطاني الروسي: 124
14 – طمع روسيا وتدخلها: 125

الخاتمة..... 127

مراجع البحث 131

أعمال سابقة للمؤلف 135

المقدمة

لم تزل تلوح أمام مخيلتي تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتي معلم الصف الابتدائي الرابع (رحمه الله)[1]، حينما بدأ يحدثنا عن الأحداث التي عصفت بجبل لبنان في العام 1860 وعن أسبابها. يومها لم أفهم سبب تلك الابتسامة، و لم أكن بعد قد أكملت العاشرة من سني العمر، وحتى يومنا هذا ما زلت أتساءل: هل كانت من قبيل الاستهزاء بالمؤرخين أم بكتب التاريخ أم بالحدث عينه؟

روى لنا يومها (حسب ما جاء في الكتاب الذي كنا ندرس فيه) أن ولدين كانا يلعبان "بالكلة"، وكسائر الأطفال اختلفا بسبب اللعب ثم تضاربا، فلم يلبث هذا الخلاف أن انتقل إلى أهليهما مشاجرة، وكان أحدهما درزي الأهل والثاني مارونيّهم. ثم تطور إلى أن عمَّ التقاتل أبناء الطائفتين في أنحاء الجبل بكامله مُوقعًا آلاف الضحايا. ثم قرأت فيما بعد في أحد الكتب أن "مكاريًّا" درزيًّا من قرية بيت مري، كان يجرُّ حمارًا على ضهره ماء فدفع الحمار غلامًا مسيحيًّا وطرحه أرضًا.. أي أن السبب غلامٌ وحمارٌ لا لعبة "الكلة".

---

(1) كان ذلك في مدرسة جديدة مرجعيون الرسمية في أواخر الأربعينات من القرن العشرين، وكان يومها يخصص معلم واحد لكل صف من الصفوف الابتدائية لا لكل مادة كما هي الحال في هذه الأيام.

فإذا اقتنعنا جميعًا أن "بوسطة عين الرمانة" كانت السبب الحقيقي لأحداث دامت في لبنان منذ العام 1975 حتى العام 1990، وما زلنا حتى اليوم نعاني من ذيولها، عندها يمكن لي أن أقتنع أن خلافَ ولدين أو غلامًا وحمارًا قد يكون السبب الحقيقي لإشعال نار فتنةٍ لم تلبث أن تحولت، بقدرة قادرٍ، إلى حربٍ أهلية تعمُّ جبل لبنان بكامله وتوقع آلاف الضحايا!!!

أما إذا تجمعت الأسباب وتراكمت الضغائن وامتلأت القلوب، بالإضافة إلى جهلِ العامةِ وانقيادهم للخاصة، أصحاب المصالح الضيقة والمغرضة، وتدخلت القوى الأجنبية المتصارعة فيما بينها ووفرت لهم السلاح بسخاء، عندها يصبح الانفجار ممكنًا في أيِّ لحظة ولأتفهِ الأسباب.

وإذا كان وضع كتب التاريخ ليس سردًا للحكايات والقصص، فقراءتها أيضًا ليست لمتعة المطالعة أو للبحث عن الأصول والأعراق والأنساب، بل هي لاستخلاص العبر من الأحداث لتكون أساسًا متينًا لبناء مستقبل أفضل.

أنا لا أدعي كوني مؤرخًا ولكن الدقة والعمق في البحث اللذين اكتسبتهما من مهنة تدقيق الحسابات، التي أمضيت فيها عشرات السنين، وحبّ الوطن والقراءة، قادتني، مجتمعةً، إلى هذا البحث في سبيل الوصول إلى الحقيقة. وإذا لم أكن قد بلغت غايتي هذه فآمل أن يكون بحثي هذا أساسًا أو منطلقًا للمؤرخين الباحثين كي يتوصلوا إلى تلك الحقيقة التي قد تجعل الأجيال القادمة تنبذُ كل ما جرّت علينا تلك الأحداث، وما تلاها، من ضغائن في النفوس وتراكمات نتج عنها أحداثٌ متتالية مختلفة الأحجام

والأهمية، سواء في عشرينات القرن الماضي أم خمسيناته أم سبعيناته وثمانيناته، أم الانقسامات الطائفية ثم المذهبية، أم ما زلنا للأسف نتخبط به نتيجة كل ذلك.

كما لا بدَّ من الإشارة إلى أن ما أوردته من شهادات وأقوال الآخرين، دونته كما جاء في المراجع حرفيًّا، بما فيه من أخطاء لغوية. هذا وقد أدرجت بعض الإشارات التوضيحية ووضعتها بين علامتي [ ].

أسامه كامل أبو شقرا

تشرين الأول 2017

لمحة عن الإمارة اللبنانية

قبل الغوص في أغوار الأسباب لأحداث جبل لبنان المؤسفة التي بدأت في العام 1841 واستمرت متقطعة حتى الفتنة الكبرى في العام 1860، فلنلقِ نظرة سريعة موجزة، تاريخيةً وجغرافيةً، على ما كان يعرف "بإمارة جبل لبنان" أو "الإمارة اللبنانية".

أولاً: موقعها

كانت سوريا، جغرافيًّا، تحتل بقعة الأرض الممتدة على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، من برزخ السويس حتى خليج إسكندرونة [عند حدود آسيا الصغرى]، وجنوبًا من السويس حتى مصب شط العرب [عند التقاء نهري دجلة والفرات] في خليج فارس [الخليج العربي]، مرورًا بخليج العقبة [أي عند حدود صحراء الجزيرة العربية]، وحتى حدود بلاد ما بين النهرين مع بلاد فارس في الشرق. وكانت أرمينيا تفصلها شمالاً، عن البحر الأسود. وبهذا الموقع كانت سوريا تعتبر بحق مفتاح قارات العالم القديم الثلاث. أما جبل لبنان، بتشعباته التي كانت تمتد على كامل ذلك الساحل، فقد كان يحتل قلب تلك المنطقة"[1]. كما أن ما يعرف اليوم باسم "صحراء

(1) **La France Au Liban-Louis De Battdicour**-Paris- E. Dentu, Libraire 1 Challamelaine-Palais-Royal. 5, rue Jacob, 5.

سيناء" كان يعرف باسم "الصحراء السورية"[1].

وبالتالي كانت سوريا تشكل معظم ما يعرف اليوم بالشرق الأدنى، أو سوريا الطبيعية التي نادى بها المفكر أنطون سعادة.

ويقول الأب مرتين اليسوعي في كتابه "تاريخ لبنان"[2]: كان التقسيم الجغرافي لمقاطعات جبل لبنان من جزيرة أرواد وسهل طرطوس شمالاً إلى عكا وساحلها جنوبًا وسنجقي حماه وحِمص ودمشق وغوطتها الشرقية ووادي العجم [حاليًّا قضاء قطنا – سوريا] شرقًا بما فيها سفوح السلسلة الشرقية لجبال لبنان [حاليًّا]...

La Syrie s'étend à l'extrémité orientale de la Méditerranée, sur une longueur d'environ quatre-vingts lieues, depuis l'isthme de Suez jusqu'au golfe d'Alexandrette, où commence la presqu'île de l'Asie-Mineure. Le Mont-Liban occupe le centre du pays, et ses ramifications se prolongent sur toute la côte; en face se trouve l'île de Chypre; par derrière, de l'autre côté de la chaîne appelée l'Anti-Liban, se développent les vastes plaines de la Mésopotamie, arrosées par l'Euphrate et le Tigre, qui débouchent dans le golfe Persique, vers l'océan Pacifique. La Syrie, au Nord, est séparée de la mer Noire par l'Arménie ; elle est bordée au Sud par le désert de l'Arabie, et sert de passage pour arriver à l'Egypte. Ainsi la Syrie est la clef des trois continents du vieux monde.
http://archive.org/stream/lafranceauliban00baudgoog/lafranceauliban00baudgoog_djvu.txt

(1) ص (27) من: المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، تعريب فيليب وفريد الخازن، المجلد الأول، الطبعة الثانية، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

(2) ص (62) من كتاب: "تاريخ لبنان" للأب مرتين اليسوعي، ترجمة رشيد الشرتوني، طبعة 1889، بيروت. راجع ص (32)، الجزء الأول، ك (2)، المجلد الثالث 1957، أوراق لبنانية، يوسف إبرهيم يزبك، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

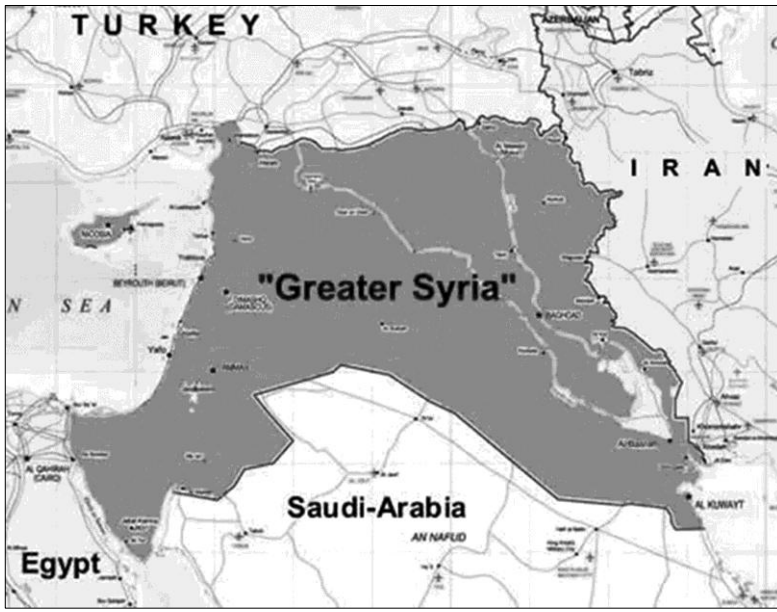

أما امتداد رقعة أرض هذه الإمارة فكان يرتبط بقوة أميرها، وقد بلغت أوجها إبان حكم الأمير فخر الدين المعني الثاني، إذ شملت إلى ما يُعرف اليوم بلبنان، سوريا وفلسطين وشرقي الأردن. ولكن في الغالب كان امتدادها من طرابلس شمالاً حتى صيدا جنوبًا، أي على مساحة ما عُرف بالقائمقاميتين. وبالتالي كانت تحتل أعلى قمم ما كان يُعرف بجبل لبنان[1].

ويوضح واضعو كتاب "تاريخ العرب"[2] التالي:

(1) ويُقال بأن بلدة "خان يونس" سميت على اسم بانيها الأمير يونس شقيق الأمير فخر الدين.

(2) ص (827) من: تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتي والدكتور أدوَرد جرجي والدكتور جبرايل جبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

"بلغت سلطة المعنيين (وهم قبيلة عربية) ذروتها في ظل الأمير فخر الدين الثاني... وكان حلمه الأكبر ذا فروعٍ ثلاثة: أولاً – تأسيس وطن أكبر أو لبنان أكبر من لبنانه الجبلي. ثانيًا – قطع العلاقات بينه وبين الباب العالي. ثالثًا – وضع لبنان في طريق التقدم والعمران. وبالفعل كاد يحقق حلمه كله، فقد تسلم من الباب العالي سنجقي بيروت وصيدا، وانتزع من جيرانه في الشمال طرابلس وبعلبك والبقاع. وخضعت له من منطقة جيرانه في الجنوب صفد وطبرية والناصرة"[1].

(1) كثيرًا ما كان ينشأ نزاع ما بين الولاة ينتج عنه انتزاع بعضهم أجزاء من أراضي خصمه ليضمها إلى سلطته. أما السلطان فقد كان يحصر اهتمامه في ما يدفعه له هؤلاء الولاة من الضرائب أو الجزية. ويتدخل أحيانًا لفضِّ النزاعات بينهم.

ثانيًا: أهمية موقعها

لم تتعرض منطقة، على الكرة الأرضية منذ فجر التاريخ، لهجمات الغزاة وحروب الشعوب والجيوش فوق أرضها أو حتى للاحتلالات الاستعمارية، كما تعرضت منطقة الشرق الأدنى عامة وسوريا خاصة. وهذا عائدٌ لموقعها الاستراتيجي ولما فيها من موارد طبيعية.

ولبيان أهمية موقع سوريا والإمارة اللبنانية، وعلى الرغم من كثرة الشهادات، فسنكتفي منها بما يلي:

1 – الشهادة الأولى:

يقول الكولونيل تشرشل "Churchill" في منتصف القرن التاسع عشر، في كتابه:

Colonel Churchill, Mount Lebanon, a Ten Year's Residence from: 1842 to 1852, vol. I, (London, 1853), pp. VII-IX.

"... إذا كانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق ينبغي لها، بشكلٍ أو بآخر، أن تُدخل سوريا ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها".

ويتابع: "أعلن نابوليون [الأول] أنه سيجعل من مدينة عكا مفتاحًا للشرق. وكانت عبقريته العسكرية على صواب في تقديرها أهمية هذه البلاد (الشرق الأدنى) التي عبثًا حاول الاستيلاء عليها ليجعل منها مرتكزًا ومنطلقًا في أعماله الحربية ضد إمبراطوريتنا الهندية. وإذا كانت أسوار عكا تنطوي على مصير عظيم لأعداء بريطانيا، فما قولك بجبل لبنان، هذه القلعة الطبيعية الكبيرة القائمة بين العالم الشرقي والغربي؟"[1].

(1) ص (14) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

2 – الشهادة الثانية:

ما قاله السفير البريطاني، السير هنـــري بولـــور (Bulwer) في رسالته إلى اللورد رسل (Russell)، في 21 آب 1860[1]: "تعلمـــون، سيادتكم أن سوريا كانت دومًا في نظر أولئـــك الـــذين أسســـوا إمبراطوريتهم في الشرق بلدًا ذا خصائص معينة ينبغي لكل من يخطط لاحتلال هذا الجزء من العالم أن يبني خططه على أساس ما لهذا البلد من أهمية. والواقع هو أن سوريا تشكل نقطة اتصالٍ بين إفريقيا مـــن جهة وآسيا من جهة أخرى"[2].

3 – الشهادة الثالثة:

"في أثناء الحرب العالمية الثانية، كتب السيد لويس أ. فرتشـــلينغ (Fretchling)، بمناسبة بحثه "استراتيجية الحلفاء في الشـــرق الأدنى" في "مجلة السياسة الخارجية" (Foreign Policy Reports) في الأول مـــن شهر شباط عام 1942 (المجلد 17، عدد 22) يقول:

"إن منطقة الشرق الأدنى التي تقع جنوبـــي الجبهـــة الروســـية الطويلة، وشرقي ساحات المعارك الصحراوية في ليبيـــا، وغربـــــي منطقة الصراع الشاسعة في القسم الجنوبـــي الشرقي من آسيا، تحتل

---

(1) Great Britain, F.O., Correspondence Relating the Affairs of Syria (confidential) April, 1850-1861, part, I, p. 114.
راجع حاشية (34) ص (194) من كتاب: الصراع الـــدولي في الشـــرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثـــة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (35) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولـــتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

اليوم مركزًا رئيسيًا في الاستراتيجية العالمية. فإن طرق النقل تخترقها برًّا وبحرًا، بما يوفر نقل الجيوش والمعدات من جبهة إلى أخرى، كما تخترقها أيضًا طرق المواصلات التي تضمن تنسيق العمليات المختلفة لجيوش الحلفاء. ولذا فإن منطقة الشرق الأدنى تعتبر حجر الزاوية في خطط الحلفاء الدفاعية"[1].

4 – الشهادة الرابعة:

"كتبت جريدة التايمز (Times) اللندنية في عددها الصادر في 24 تشرين الثاني، عام 1943، تقول: "إن مجرى الحرب بأكمله قد أظهر لنا بوضوح أهمية الشرق الأوسط بالنسبة إلى المصالح البريطانية. وفضلاً عن هذا فإننا قد تعلمنا أن بلدان المشرق، ولا سيما لبنان، من أعظم المناطق الحيوية، فإن أهميتها بالنسبة إلينا لا تقتصر على كونها مناطق تقع على خطوط مواصلاتنا إلى الشرق، ولكن أصبح من الواضح جدًا أنه لو تمركزت قوة جوية كبيرة لأعدائنا من قاذفات قنابل في الجبال المنيعة الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان الغربية منهما والشرقية، مع جميع إمكانات تحصينها تحصينًا قويًا، تستطيع السيطرة فورًا على قناة السويس، وعلى حقول البترول في كركوك وخطوط الأنابيب..."[2].

---

(1) ص (16) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (16) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

5 – الشهادة الخامسة:

يقول رمزي (W.M. Ramsay) في كتابه:

The Historical Geography of Asia Minor (London), 1890, p. 23:

"إن شبه جزيرة آسيا الصغرى الواقعة جسرًا بين آسيا وأوروبا كانت منذ بدء التاريخ ساحة حرب بين الشرق والغرب. عبر هذا الجسر انتقلت ديانات الشرق الأدنى وفنونه وحضارته إلى بلاد الإغريق، وحضارة الإغريق مرت فوق هذا الجسر في رعاية الإسكندر المقدوني في طريقه إلى فتح الشرق والاستيلاء عليه. وعلى هذه الطريق ذاتها مشت شعوب عديدة: الإيرانيون والعرب والمغول والأتراك في محاولاتها لإخضاع الغرب للشرق"[1].

ولا بد لنا من أن نشير أيضًا إلى أن محمد علي باشا، والي مصر، كان يرى أمامه عقبتين تحولان دون تحقيق رغبته في احتلال سوريا، هما إمارتا "جبل لبنان" و"جبل نابلس" وخاصة أن فيهما قومين شديدي المراس قد ألفا الحروب، وهما: دروز جبل لبنان وأمراء آل جرّار وآل طوقان في جبل نابلس[2].

ونشير إلى ما جاء في تقرير بازيلي، قنصل الروسية في بيروت، إلى بوتينيف، مندوبها في الآستانة، بتاريخ 11 حزيران 1840 (11 ربيع الأول 1256 هـ):

"وكما أن انضمام اللبنانيين إلى جيش إبراهيم باشا في سنة 1832 قد جرَّ معه خضوع كل سوريا فلا يبعد أن ثورتهم اليوم [1840]

(1) ص (187) من المرجع السابق.

(2) ص (17) من كتاب: "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية"، يوسف خطار أبو شقرا، تحقيق عارف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

ستؤول إلى طرد المصريين نهائيًا من هذه البلاد إلا إذا أخمدت نارها بالتساهل مع أهالي الجبل المذكورين وإعطائهم ضمانات على المستقبل"[1].

وبالتالي فإن بلدًا له، في نظر الدول الكبرى، مثلُ هذه القيمة الاستراتيجية سيبقى استقلاله دومًا مرهونًا بمشيئة تلك الدول، إلا إذا كان أبناؤه صفًا واحدًا في سبيل صونه مهما تفرقت آراؤهم.

ثالثًا: نشأتها وتطورها

انتقل التنوخيُّون إلى جبل لبنان في خلافة أبي جعفر المنصور (754م – 775م) بناء على أمره، واستوطنوا وراء بيروت لحماية الساحل والطرق الداخلية[2].

وفي أوائل القرن الثاني عشر وبناء على أمر طغتكين، صاحب دمشق، "جاء إلى الجبل مجموعة من العشائر بقيادة معن بن ربيعة، وكانوا قد حاربوا الصليبيين في شمالي سورية وتراجعوا جنوبًا بعد هزيمتهم، ثم استقروا إلى جوار التنوخيين وتزاوجوا معهم"[3].

ويوضح الدكتور شاكر الخوري قائلاً: "في سنة 1120 أمر طغتكين، صاحب دمشق، الأمير معن الأيوبي أن يقدم بعشيرته إلى

---

(1) ص (7) المجلد الأول من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

(2) ص (18) من كتاب: الدروز في التاريخ، الدكتورة نجلاء أبو عز الدين، طبعة 2، دار العلم للملايين، بيروت 1990.

(3) ص (19) من كتاب: الدروز في التاريخ، الدكتورة نجلاء أبو عز الدين، طبعة 2، دار العلم للملايين، بيروت 1990.

البقاع ومنها إلى لبنان المشرف على البحر لأجل غـــزو الإفـــرنج في الساحل. فحضر الأمير إلى الشوف الذي كان مقفرًا مـــن الســـكان ونزل بخيامه في مرج بعقلين الذي [التي] عمرها وسكن فيها وقد اتحد مع بحتر أمير الغرب التنوخي"[1].

ويبين الدكتور فواز طرابلسي: "اصطف آل معـــن إلى جانـــب العثمانيين في قتالهم آل حرفوش، حلفاء الصفويين في بلاد فارس، ألد أعداء العثمانيين. لقاء تلك النجدة، عُين زعيم آل معن، فخر الـــدين بن عثمان بن ملحم (1516–1544) ملتزمًا علـــى بـــلاد الشـــوف وحاكمًا لسنجق صيدا – بيروت – صفد ومُنح رتبة (أمير لواء)، أو (سنجق بيك)"[2].

وهكذا كانت بداية تاريخ "الإمارة اللبنانية" مع بني معن، حتى العام 1697 حيث انتقل حكمها منهم إلى أنسبائهم آل شهاب، بعد وفاة الأمير أحمد بن ملحم (1658–1697) الذي مات مـــن دون عقب. فكان الأمير بشير (الأول 1697–1707 صاحب راشيا) أول الأمراء الشهابيين الذين استمرت ولايتهم حتى تنحية الأمير بشـــير الثالث وإحلال نظام القائمقاميتين في العـــام 1842، محـــل نظـــام الإمارة.

---

(1) ص (77) من كتاب: مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري الصـــادر في 1908، تقديم الدكتور الياس قطار، الطبعة الثانية، دار لحد خاطر، بيروت 1985.

(2) ص (13) من كتاب: تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف، فواز طرابلسي، الطبعة الأولى، رياض الريس للكتب والنشـــر، بـــيروت، شباط 2008، طبعة جديدة منقحة ومزيدة، تشرين الأول 2008.

رابعًا: سكانها الموحدون الدروز

يقول القاضي أمين طليع: "نزحت بعض قبائل بني ربيعة من شبه الجزيرة العربية إلى لبنان قبل الدعوة الدرزية[1] بمائتي سنة تقريبا، أي في بداية القرن الثالث للهجرة، ثم انتشرت حتى بلغت سفوح جبال طوروس. وبعد الدعوة، توطن الدروز في قمم لبنان وسفوحه، لا سيما قضاءي الشوف والمتن. فكانت بسكنتا أولى عواصمهم. ومن مواطنهم بكفيا والبترون ودير القمر.

ونزل آخرون في أقضية حاصبيا وراشيا، المعروفة بوادي التيم[2]، وفي البقاع ووادي العجم[3]، وغوطة دمشق وجبل الدروز[4] والجبل الأعلى في شمال سوريا، وفي صفد وجبل الكرمل من أعمال فلسطين"[5].

أما الدكتورة نجلا أبو عز الدين فتقول: "وفي سجل النسب الأرسلاني، وهو مرجع موثوق، أن التنوخيين انتقلوا من معرة النعمان إلى جبل لبنان في خلافة أبي جعفر المنصور الذي أمر الأمراء الأرسلانيين أن ينتقلوا مع عشائرهم ويستوطنوا الجبل وراء بيروت ليحموا الساحل ويحفظوا الطرق الداخلية.

"كانت الزعامة للأرسلانيين في العهد التنوخي الأول في جبل لبنان. لكنهم كادوا ينقرضون في موقعة جرت مع الصليبيين في

(1) كانت هذه الدعوة في بداية القرن الخامس للهجرة.
(2) نسبة إلى بني تيم الله بن ثعلبة الذين توطنوا هذا الوادي.
(3) يعرف حاليًا بقضاء قطنا في سوريا.
(4) يعرف حاليًا بمحافظة السويدا في سوريا.
(5) ص (19) من كتاب: أصل الموحدين الدروز وأصولهم، أمين طليع، الطبعة الثالثة، توزيع معرض الشوف الدائم، 2001.

بيروت والغرب في سنة 503 / 1110، انتقلت بعدها الزعامة إلى آل بحتر"[1].

ثم تضيف: "وجاء إلى الجبل مجموعة من العشائر بقيادة معن بن ربيعة، وكانوا حاربوا الصليبيين في شمالي سورية وتراجعوا جنوبًا بعد هزيمتهم، ثم استقروا إلى جوار التنوخيين وتزاوجوا معهم. وفيما بعد حكمت أسرة معن لبنان الذي بلغ أوج عزه في أيام الأمير فخر الدين الثاني في الثلث الأول من القرن السابع عشر"[2].

ويقول أمين آل ناصر الدين، في كتابه "الأمراء آل تنوخ" – 1939 – في نسب آل تنوخ:

"كان أبو إسحق إبرهيم أبي عبد الله محمد بن علي التنوخي أميرًا على البيرة سنة 418 للهجرة و1027 للميلاد وهي بلد على شاطئ الفرات في شرق حلب الشمالي يقال له اليوم (بيره جك) ونزل أعقابه لبنان فاستقروا في القسم المشرف من الشوف على البحر، وهذا القسم مشتمل على الغربين والشحار والجرد، وأطلق عليه اسم الغرب من باب التغليب، وقد قيل للتنوخيين أمراء الغرب منذ اتخذوه دون غيره مقرًا لهم.

"اشتهر من أعقاب أبي إسحق إبراهيم (ناهض الدولة أبو العشاير بحتر) وهو ابن علي بن الحسين حفيد إسحق، وكان بحتر رجلاً بعيد الهمة طماحًا إلى ذرى المعالي شجاعًا مقدامًا، فاستقل

(1) ص (18) من كتاب: الدروز في التاريخ، الدكتورة نجلاء أبو عز الدين، طبعة 2، دار العلم للملايين، بيروت 1990.

(2) ص (19) من كتاب: الدروز في التاريخ، الدكتورة نجلاء أبو عز الدين، طبعة 2، دار العلم للملايين، بيروت 1990.

بالإمارة في الغرب سنة 1126 للميلاد ثم اتسعت ولايته بعد أن حارب الفرنج على نهر الغدير سنة 546 للهجرة و1151 للميلاد وكسرهم وقتل كثيرًا منهم، ويومئذٍ فروا إلى بيروت معتصمين بها من هجماته، وما زال بحتر يشن عليهم الغارة بعد الغارة حتى شاع ذكره وعظم شأنه، وكانت وفاته سنة 552 للهجرة و1157 للميلاد فخلفه ابنه كرامه، وخلف كرامه ابنه حجى، وأخذ نسلهم يتكاثر وقيل لهم البحتريون نسبة إلى بحتر"[1].

خامسًا: سكانها المسيحيون الموارنة

كان الموارنة قد لجأوا إلى القسم الشمالي من سلسلة جبال لبنان الغربية بعد ما تعرضوا له من اضطهاد في شمالي سوريا إثر الخلافات المذهبية المسيحية فيه.

وفي عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني (1590–1635) بدأ المسيحيون الانتقال من شمالي جبل لبنان إلى جنوبه، طلبًا للأمن وسعيًا وراء الرزق، وقد كانوا يقابلون بالترحاب من قبل سكانه الموحدين الدروز وكل قرية كانت تستقبل المسيحيين، كانوا يعُدُّونها من "الضياع الشريفة". ولما تسلم الأمير فخر الدين زمام الحكم استقدم الشيخ الخازني واتخذه له مدبرًا[2].

ويقول الدكتور شاكر الخوري في هذا: "فسبب سكنى الموارنة

(1) ص (307)، ج6، حزيران 1956، المجلد الثاني 1956، أوراق لبنانية، يوسف إبرهيم يزبك، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

(2) ص (367) من كتاب: أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

قديمًا هذه الجبال [جبال لبنان] هو الخوف والاضطهاد..."[1].

ويضيف: "إن نصارى لبنان حضروا إلى جنوبيه في أوقات متفرقة ولغايات عديدة بحيث أنهم عاشوا مع الدروز بالراحة والسكينة وأخذوا عوائدهم. وأكرموهم [أي الدروز هم الذين أكرموا النصارى] وصانوا حقوقهم وأشركوهم في مصالحهم بحيث أصبحوا لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وكانت القرى التي تقبل النصارى تسميها الدروز صاحبة الشرف"[2].

ويكمل: "فعلى العموم عندما ساد الأمن في لبنان بجاه أمراه العظام ابتدأت النصارى تأتي إليه من كل المدن وقد حضر النصارى إلى جنوبيه مدة الأمير فخر الدين [المعني الثاني] كما قلنا وإلى دير القمر في زمن الأمير بشير [الشهابي الثاني]. والذي حاز أعظم شهرة منها هو جرجس باز مدبر أولاد الأمير يوسف الشهابي الذي [أي جرجس باز] عمل لهم حزب عظيم في البلاد وبنى سرايته الشاهقة في دير القمر..."[3].

---

(1) ص (37) من كتاب: مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري الصادر في 1908، تقديم الدكتور الياس قطار، الطبعة الثانية، دار لحد خاطر، بيروت 1985.

(2) ص (38) من كتاب: مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري الصادر في 1908، تقديم الدكتور الياس قطار، الطبعة الثانية، دار لحد خاطر، بيروت 1985.

(3) ص (59) من كتاب: مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري الصادر في 1908، تقديم الدكتور الياس قطار، الطبعة الثانية، دار لحد خاطر، بيروت 1985.

سادسًا: العيش بوئام فيما بينهم حتى أوائل القرن التاسع عشر

يبدو أن الاضطهاد الذي تعرضت له الطائفتان قد ألف بين أبنائهما كمن جمعتهم المصيبة فعاش الدروز والموارنة، في شمال وجنوب جبال لبنان، بوئام على مدى ما يزيد عن القرنين. والشهادات على ذلك كثيرة نكتفي منها بما يلي:

1 – الشهادة الأولى: ما قاله الشيخ ناصيف اليازجي

في كتابه (رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي): «وكان في البلاد عداوات كثيرة تقع بين الطوائف ويجري بينهم وقائع شتى ويقتل منهم خلق كثير. فكان يتعصب لكل فئة جماعة من أصدقائهم يحضرون القتال معهم ويُلقون أنفسهم إلى المهالك تبرعًا من غير سبب يتعلق بأنفسهم. ولا تزال هذه العصبية بينهم يتوارثونها خلفًا عن سلف إلى ما شاء الله من الزمان. ولم يكن في ذلك فرق بين النصارى والدروز فكان كل فريق منهم يتعصب للآخر كما يتعصب لقومه، ولكنهم في هذه العداوات كانوا يلتزمون المروءة ويتحاشون الدنايا، فلا يأخذ بعضهم بعضًا إلا اقتناصًا بالغلبة. كما يحكى عن بعضهم أنه مر يومًا ببيت عدوه فوجد امرأة ذلك العدو في عمل لا تقدر عليه فمال إلى مساعدتها وبينما هو كذلك أقبل بعلها فسلم عليه كصديق له. ثم أحضر إليه طعامًا فأكل ثم أراد الانصراف فاستودعه وقال: نحن على ما كنا عليه»[1].

(1) ص (367) من كتاب: أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

2 – الشهادة الثانية: قول يوسف إبرهيم يزبك محرر مجلة "أوراق لبنانية"

"وقد تعايش الدروز والنصارى قرنين كاملين أخوة وأحبابًا قبل الحركات، فلم يصطدم المعتقد الديني عند بعضهم بما يثيره على المعتقد الديني الآخر.

"والنصارى الذين جاؤوا إلى الشوف يعايشون أصحابه الدروز – وأكثرهم موارنة صراح ومسيحيون أقحاح – جاؤوا إليه لاجئين من جور حكامهم أو من أبناء مذهبهم ودينهم، وجاؤوا طلاّب عيشٍ كادحين، وحاملين صلبانهم على صدورهم فلم يخدعوا مضيفيهم و لم يكتموه عنهم، ولما استقر المقام بهم بنوا كنائسهم على القِمم، وكان كثيرون من إخوانهم بني معروف يساعدونهم ماديًا ومعنويًا على بنائها. ومر عليهم قرنان كاملان يمارسون واجباتهم الدينية علنًا وبحرية كاملة في حصن الدرزية، وعلى قيد أنملة من أصحاب هذا الحصن، ومن شيوخ الموحدين، فلم يقل لهم قائلٌ: ما هذا الذي تعملونه؟ و لم يعترضهم معترض.

"وما ذكر ذاكرٌ أن هؤلاء المتعايشين أخوة وأحبابًا قد اختلفوا طوال القرنين السابقين، وقبل إبرهيم باشا، اختلافًا دينيًا. وفي هذا يقول المؤرخ الوزير العثماني جودت باشا: "... والمنافرات الكثيرة التي تحصل بين سكان الجبل، ليست دينية، أو مذهبية، ولكن اتحادهم واختلافهم مبنيان على العصبية السياسية"[1].

(1) ص (333) من المجلد الأول: أوراق لبنانية، يوسف إبرهيم يزبك، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

3 – الشهادة الثالثة: رسالة البابا بيوس السابع

في رسالته إلى الشيخ بشير جنبلاط المؤرخة في 1817/2/15، كما نشرت حرفيًا في ص (413) أوراق لبنانية، المجلد الثاني، الجزء التاسع، أيلول 1956:

"بيوس البابا السابع إلى الشيخ بشير جنبلاط الذائع الصيت، الكبير السطوة أيها الأمير الشهير والمقتدر، سلام ونور النعمة الإلهية.

"شملنا فرح كثير إذ بلغ مسمعنا لأول مرة أن من جملة المزايا الرفيعة التي تتحلى بها نفسكم، عطفَكم الخاصَ على الكاثوليك الموارنة. هذا ما أخبرنا به الابن العزيز يوسف السمعاني المدبر الأول للجمعية (الرهبانية) الحلبية اللبنانية. وبما أنه يستعد للرجوع إلى نواحيكم حاملا بعض الأحكام الموجهة إلى بطريرك الطائفة المارونية وأساقفتها، فإننا لم نشأ أن يبارح هذا المكان دون (أن نزوده) برسالة تخبر محبتنا لكم.

"وفي الرسالة عينها نطلب منكم – والنفس واثقة – أن تسهروا بحمايتكم واهتمامكم على أولادنا الأعزاء الكاثوليك الموارنة وتتابعوا إعارة سلطتكم وخدماتكم فتنفذ أحكامنا المذكورة، العائدة بالخير على قوانين الطائفة الكنسية.

"(واعلموا) أنكم بعملكم هذا تحققون أمرًا عزيزًا علينا، وتساهمون في سبيل ازدهار الطائفة المارونية الكريمة وتوطيد السلام (بين أبنائها).

"هذا وإننا لنضرع إلى الله العزيز قدره لكي يمنحكم نعمته السماوية والسعادة الحقيقية.

"أعطي برومة في 15 شباط 1817، السنة السابعة عشرة لحبريتنا".

وجواب الشيخ بشير جنبلاط كما نشر حرفيًّا في ص (415) من المجلة المذكورة:

"* سعادة صاحب السدة البطرسية وركن ملة العيساوية، المتوشح بحلل رئاسته على جميع رؤسايه (؟) وصاحب الفخر في دولته وعلايه، فريد الذات حميد السمات المحتشم حفظه الله تعالى.

"إن أجلى ما تحلت به أحرف الرقاع، وأعلى ما نشقت به أنوف السماع، وأشرف ما وشاه البنان، وألطف ما أنشاه من درر اللسان، بعد حمد الرحيم الرحمن، إنه في أبرك الأوقات وفد الخطاب المستطاب * وحمدنا الباري جلّ وعلا، حيث الإشعار على رفاه ذاتكم المأنوسه

وما تقدم من فحو الخطايا صار معلومنا. وحسب المرغوب بسطنا الرجا لسعادة أفندينا الأمير[1] الأفخم، أطال الله بقاه، فيما التمستموه من لدنا، * ومن وفور غيرته ومزيد شهامته أمر بإتمام مطلوباتكم إلى حضرة محبنا البطرك ومحبينا المطارين، وأقاموا مجمعهم[2]، وانتها حسبما أمرتموهم به بموجب رسوم ديانتكم.

وإنشا الله الرحمن، لا يحصل تأخير عن ترتيب ونظام الرعايا وتوفيق أحوالهم، وقيام الحق والعدل بموضوعاته ومحمولاته. وأدام بقاكم في 21 رجب سنة 1233". (الموافق 27 نوار 1818)

المخلص: بشير جنبلاط

(1) بشير [الثاني] الكبير. وكان السَّمِيان يشتركان في حكم الجبل وهما على خير ما يكون من الوفاق. (محرر مجلة أوراق لبنانية).

(2) الملف 1817–1822، الموارنة: الورقة 733. (محرر مجلة أوراق لبنانية).

4 – الشهادة الرابعة: ما جاء في كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام"

"فقد كان الدروز والنصارى فيه [أي جبل لبنان] إلى منتصف هذا القرن [القرن التاسع عشر] يعيشون بالولاء والإخاء ولم تحصل بينهم حروب دينية مثل التي نُكبت بها هذه البلاد التعيسة من سنة 1840 إلى سنة 1860..".

"وأما قبل تلك الأيام [1840–1860] فكان أمراء لبنان من بيت معن وشهاب وتنوخ لا يحاربون حربًا إلا إذا كان الدروز والنصارى فيه يدًا بيد ولا يعرفون غير الأحزاب السياسية التي ينضم فيها النصارى إلى الدروز وينقسم الدروز على الدروز وهذه غير الحروب الدينية التي أضنت قوام الطائفتين"[1].

5 – الشهادة الخامسة: ما قاله يوسف خطار أبو شقرا، المتوفى في العام 1905

"كانت الطائفتان محبة إحداهما بالأخرى آنسة إليها وبعبارة أخرى كانت الجماعتان كجماعة واحدة تعملان على وتيرة واحدة غير متباينتين إلا في قاعدة الدين واليقين، وكنتَ أيامئذٍ ترى الدرزي والنصراني يقاتلان تحت علم واحد ويحاربان بغية عاقبة واحدة..."[2].

---

(1) ص (65–66) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

(2) ص (25) من كتاب: "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية"، يوسف خطار أبو شقرا، تحقيق عارف يوسف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

وهذا ما يؤكده أيضًا الدكتور شاكر الخوري: "وبقي الحال على ذلك مدة حكم أمراء لبنان فكانوا يذهبون سوية للحرب ويتعاضدون في المصالح العمومية وكانت لهم حرية الدين. وبقي الأمر إلى انقضاء حكم الأمير بشير قاسم الشهابـــي..."[1].

سابعًا: نظام الحكم العثماني

"قامت الدولة العثمانية على أساس الحكم المطلق فكان السلطان وحده صاحب السلطة العليا في إدارة البلاد مستعينًا بمن وثق بهم من الرجال وأسند إليهم المناصب العالية في مختلف الشـــؤون العســـكرية والمدنية الداخلية والخارجية.

"أما الولايات المرتبطة مباشرة بالعاصمة، دون أن يكون لها نظام إداري خاص بها، فكانت تُدار مـــن قِبَـــل ولاة يعينـــهم الســـلطان بصلاحيات واسعة، تبعًا للحكم المطلق. وكان الوالي يعتمد في الإدارة على خبراء وهم في الغالب من أبناء مركز الولاية ويتعاون مع الزعماء الإقطاعيين في الملحقات. وكان همه الأول إقرار الأمـــن والســـكينة وتأمين الطاعة لجلالة السلطان وجباية الضرائب... دون أن يكون [له] أي اهتمام بضمان الرفاهية للشعب وإقامة العدل بين أفراده أو بينـــهم وبين الحكومة ورجالها. وحين تتوالى الشكايات، دون أن تلقـــى في الغالب، من أولياء الأمر، أذنًا صاغية، يبدو العصيان على الحكومـــة، فتقوم لإخماده بسفك الدماء وتحريك الزعماء على بعضهم الـــبعض،

(1) ص (38) من كتاب: مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري الصـــادر في 1908، تقديم الدكتور الياس قطار، الطبعة الثانية، دار لحد خاطر، بيروت 1985.

إلى أن يستتب الأمر على الوجه الذي ترومه، بما حواه في معظم الأحيان من تبديل في الولاة والحكام الإقطاعيين وتأديب المقصرين في واجباتهم ومعاقبة المسيئين منهم بمصادرة ما جمعوه من أموال الشعب"[1].

ثامنًا: الامتيازات الخاصة بالأجانب وغير المسلمين

كانت الإمبراطورية العثمانية تنظم أمور غير المسلمين، والأجانب المقيمين على أرضها بموجب "قوانين الامتيازات الأجنبية". ولهذه القوانين طابع دولي. ولم يكن الشرع الإسلامي يُطبق على غير المسلمين في الإمبراطورية العثمانية إلا في حالات نادرة، لأنها اعتبرت خارج النطاق الذي يشمله الشرع.

"فور فتح القسطنطينية أقر "الفاتح"، بناء على اعترافه بالعرف الذي أخذ به أسلافه من السلاطين، مبدأ الاستقلال الذاتي للطوائف الدينية من غير المسلمين، ووضع أحكامًا خاصة للمقيمين من الأجانب في إمبراطوريته، مما وفر لهؤلاء تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة"[2].

"وفي القرن السادس عشر كانت فرنسا أول دولة نالت، سنة 1535، أول امتيازات (Capitulations) في الإمبراطورية العثمانية. ويمكن اعتبار تلك الامتيازات المنطلق الأول الرئيسي لنفوذ فرنسا في الشرق الأدنى. ولم تقتصر الامتيازات التي نالتها فرنسا في هذه

(1) ص (15) من كتاب: ذكريات يوسف الحكيم (1) سورية والعهد العثماني، الطبعة الرابعة، دار النهار للنشر، بيروت 1991.

(2) ص (32) من كتاب: نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1979.

الإمبراطورية على مغانم تجارية بل إنها حصلت على حق حرية العبادة، وعلى حقها في حماية المسيحيين بوجه عام، والكاثوليك بوجه خاص (Young, G., Vol. II, pp. 125-132, on "The Relations of France and the Latin Church in Turkeys"). وفي الفترة الواقعة بين سنة 1535 وسنة 1740 جدد الباب العالي هذه الامتيازات الممنوحة لفرنسا وثبتها ثماني مرات متوالية[1].

"واستمدت الجالية الفرنسية قوة من الامتيازات الأجنبية التي منحها [السلطان] سليمان 1535 لفرنسيس الأول [ملك فرنسا]، ومن معاهدة 1740 بين [السلطان] محمود الأول ولويس الخامس عشر [ملك فرنسا] التي وُضِع كل النصارى بموجبها تحت حماية فرنسية"[2].

و"في سنة 1774 وُقعت معاهدة [بين تركيا وروسيا]... وبموجب بنودها مُنحت روسيا حق بناء كنيسة عامة في إستانبول، تتبع الطقس اليوناني الأرثوذكسي تكون حمايتها من حق السفير الروسي... وبوصفها حامية لكنيسة الروم الأرثوذوكسية، للنصارى من الروم الأرثوذوكس... سنحت أمام روسيا فرصة مواتية للتدخل في شؤون تركيا الداخلية"[3].

---

(1) ص (33) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (825) من: تاريخ العرب، حتي وجرجي وجبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

(3) ص (27) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

"وفي عهود القياصرة كانت روسيا تعلن للملأ أنها حامية الأقليات العرقية من الرعايا في الإمبراطورية العثمانية. – لا سيما السلافية منها – وحامية الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وأتباعها"[1].

وبموجب هذه الامتيازات أصبح قرار الفصل فيما يتعلق بغير المسلمين، من صلاحيات سفارات أو قنصليات الدول الأجنبية تبعًا للمذاهب التي منحت حق حمايتها.

فكان من نتائج هذه الامتيازات أن أضيف إلى التنوع العرقي، في مكونات الدولة العثمانية، تنوع طائفي مذهبي ولاؤه إلى دولٍ غربية.

(1) ص (18) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

نبذة موجزة عن أحداث
القرن التاسع عشر عامة

أولاً: بدايتها مع الصراع بين البشيرين[1]

بعد أن عزل أحمد باشا الجزار، والي عكا، الأميرَ يوسفَ الشهابي، في العام 1787، ولّى الأميرَ بشيرًا الشهابي الثاني على إمارة جبل لبنان. وقد كان للشيخين بشير قاسم جنبلاط، زعيم الجنبلاطيين، وعبد السلام عماد، زعيم اليزبكية، دور كبير في ذلك، إذ توافقا على تخليص البلاد من ظلم الأمير يوسف، وساندا الأمير بشيرًا معنويا وماديًا. حفظ الأمير بشير للشيخين جميلهما. وبعد وفاة الشيخ عبد السلام (1205هـ) [الموافق 1790–91م]، استمر الوئام بين البشيرين حتى بداية العشرينات من القرن التاسع عشر. وقد بلغت العلاقة بينهما درجة جعلت الشيخ بشيرًا يتدخل في كلِّ أمور الحكم. وفي أواخر العام 1822، ذهب الأمير بشير إلى مصر للقاء واليها، محمد علي باشا، حيث اتفقا على التحالف فيما بينهما. وسنبين سبب هذه الزيارة في فقرة "سياسة الأمير بشير الثاني". وبعد عودته منها اتبع الأمير بشير سياسة البطش بادئًا بمعارضيه من الأمراء الشهابيين، ثم راح يفتك بالعائلات الإقطاعية.

(1) الأمير بشير الشهابي الثاني والشيخ بشير قاسم جنبلاط.

الدرزية اليزبكية بمساعدة صديقه شيخ الجنبلاطيين، الذي حوّلَه استغلالُ هذه الصداقة، عدوًّا للنكديين والعماديين. ثم راح الأمير يضمر الشرَّ للشيخ وأعوانه، وما لبث أن أبعده عن الجبل فرحل إلى جبل حوران حيث مكث عشرين شهرًا. عاد بعدها إلى أصدقائه آل الخازن في كسروان، الذين أوفدوا الرسل إلى أعوان الشيخ بشير فأتوه بكامل أسلحتهم، ومنها توجهوا إلى المختارة، حيث تقابلوا مع جند الأمير الذي استطاع، بمعاونة عبد الله باشا، والي عكا، التغلب على الشيخ الذي فرَّ، وبرفقته الشيخ علي عماد، إلى حوران ولكنهما ما لبثا أن وقعا بيد عبد الله باشا الذي شنقهما على بوابة عكا تنفيذًا لأمر محمد علي باشا[1]. بعد ذلك وضع الأمير بشير يده على أملاك الشيخ بشير ومعظم العائلات الإقطاعية الدرزية، واستمر هذا الوضع حتى خروج المصريين من سوريا وعزل الأمير، في العام 1840.

ويقول الأمير حيدر أحمد الشهابي، (الذي كان معاصرًا للأمير بشير الثاني): "أما عبد الله باشا فكتب إلى الأمير [بشير] أن يهدم جامع المختارة لأن الدروز غير أهل له فهدمه. ... ثم سلم الأمير [بشير] إقليم جزين وإقليم التفاح وجبل الريحان لولده الأمير خليل، والعرقوبين لولده الأمير قاسم والشويفات للأمير بشير ملحم ومعاطاة أمور الأمراء اللمعيين للأمير ملحم والغرب الأسفل عدا الشويفات للمشايخ التلاحقة والشوف للشيخ حمود والشيخ نصيف النكديين

(1) ص (14) من كتاب: "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية"، يوسف خطار أبو شقرا، تحقيق عارف يوسف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

وإقليم الخروب للشيخ حسين حمادة البعقلـــيني... وجـــرّم المـــذنبين وصفت له الأيام"[1].

ثانيًا: الاحتلال المصري لسوريا

بعدما أمن محمد علي باشا، والي مصر، جانب جبلـــي لبنـــان ونابلس، "بالتحالف" مع الأمير بشير الشهابـــي الثاني، حاكم جبـــل لبنان[2]، وبنزع الإمارة في جبل نابلس من آل جـــرّار وآل طوقـــان وتسليم زمامها إلى الشيخ حسين عبد الهادي بفرمـــان مـــن البـــاب العالي[3]، بدأ إبراهيم باشا، ابنه وقائد جنده، زحفه على ســـورية في اليوم الثاني من تشرين الثاني سنة 1831. وسقطت عكا في أواخر شهر نوار 1832. وفي أثناء شهر تموز فتحت حمص وحلب ودمشق وسائر مدن سورية الشمالية. وقبل أن ينتهي شهر تموز كان الجيش المصري

---

(1) ص (1280) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابـــي لبنان في ظلِّ الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد، إشراف نظير عبـــود، طبعة 1993، دار نظـــير عبـــود، ص. ب. 11/8086، تلفـــون 936772 و934714.

(2) في أول عشرينات القرن التاسع عشر.

(3) كان ذلك في العام 1830 إثر امتناع أمراء نابلس عن تأدية الأموال الأميرية إلى عبد الله باشا، والي عكا، فكان أن طلب هذا الأخير مساعدة محمـــد علي باشا، الذي طلب من (أو بالحري أمر) الأمير بشير الشهابـــي الثاني أن يوافي عبد الله باشا بقوة عسكرية كبيرة لضرب أولئك الأمراء، فأرسل الأمير بشير قوة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل (جلهم من الدروز)، وانضم إليهم عشيرة بني عبد الهادي الذين كانوا على طرفي نقيض مع آل جـــرار وآل طوقان. (انظر ص (17) من كتاب "الحركات في لبنـــان إلى عهـــد المتصرفية، يوسف خطار أبو شقرا، تحقيق عارف يوسف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952).

قد جاوز مضيق بيلان إلى أراضي الأناضول حتى انتهى إلى كوتاهية قبل نهاية كانون الثاني عام 1833م.

ثالثًا: حرب اللجاه في جبل حوران[1]

في العام 1833 أصدر إبراهيم باشا المصري أمرًا بالتجنيد العام في سورية كلها على أن يجند رجلٌ واحد من كل عشرة رجال. فقامت بوجهه الثورات وكانت أولاها في فلسطين من نيسان إلى أيلول سنة 1834، وعلى أثر هذه الثورة انتشر الاضطراب في معظم أنحاء سورية.

وفي أواخر أيلول سنة 1835 شرع بنزع سلاح اللبنانيين بادئًا بالدروز ثم المسيحيين. وفي أواخر تشرين الأول من السنة نفسها شرع في تجنيد الدروز فطلب على يد الأمير بشير الشهابي الثاني أن يقدم الدروز ألفًا وستمائة مقاتل ثم عاد ورضي بثمانمائة.

وفي العام 1837 ثار دروز جبل حوران، للسبب عينه، وتطورت ثورتهم إلى حرب ضروس امتدت حتى صيف العام 1838. وفي أثنائها اقترح شريف باشا على إبراهيم باشا إعداد جيشٍ يقوى على الحرب بين الصخور وتجنيد سبعة آلاف أو ثمانية آلاف من نصارى لبنان لهذه الغاية. ولكن إبراهيم باشا رأى أن تسليح نصارى لبنان تدبير خطير من ناحيتين: الأولى، إنه لا يتفق مع كرامة الحكومة المصرية وشهرتها، والثانية، إن نجاح النصارى غير مضمون، فإن فشلوا في مهمتهم، هل

(1) اللجاه منطقة في جبل حوران صخرية صعبة جدًا جرت فيها أشرس المعارك كبد فيها الدروزُ الجيش المصري خسائر فادحة بالأرواح وغنموا الكثير من المعدات.

يقال للدروز: "الأمان يا دروز"؟[1]. لكن إبراهيم باشا عاد فطلب من الأمير بشير الشهابي الثاني تجنيد نصارى لبنان حين امتدت الثورة إلى أطرافه.

أما دروز لبنان فلم يشاركوا في حرب اللجاه لسببين:

أولهما: لأن إبراهيم باشا كان قد جند منهم نحو ألف ومائتي رجل ولأنه عمد إلى تسليح عدد كبير من نصارى لبنان بعد أن جرد دروزه من سلاحهم.

والثاني: "أنه في 8 محرم سنة 1254هـ (4 نيسان 1838) أصدر إبرهيم باشا أمرًا إلى حسين باشا بأن تقوم الفرقة الدرزية إلى حلب ويلحق بها كل الدروز المجندين، ضباطًا كانوا أو جنودًا، وأن لا يبقى منهم رجل واحد مع الجيش الموجه إلى حرب الدروز"[2].

ويقول الأمير حيدر الشهابي[3]: "وأما إبراهيم باشا [إبان حربه مع دروز جبل حوران] فكتب من جهات حلب إلى الأمير [بشير] أن يوجه حفيده الأمير مجيد قاسم بعسكر إلى جهات دمشق لصد دروز لبنان ووادي التيم عن إنجاد دروز حوران والمحافظة على الطرق. وأن

---

(1) المحفوظات الملكية، مجلد 3، ص 340 و345 و370. (راجع تاريخ جبل حوران، أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011، ص 283).

(2) المحفوظات الملكية، ج3، ص 376. (راجع تاريخ جبل حوران، أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011، ص 283).

(3) ص (1302) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي لبنان في ظلّ الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد، إشراف نظير عبود، طبعة 1993، دار نظير عبود، ص. ب. 11/8086، تلفون 936772 و934714.

يوجه حفيده الأمير محمود خليل إلى حاصبيا لإرهاب الدروز اللبنانيين كي لا ينجدوا دروز الوعرة [اللجاه في جبل حوران]".

رابعًا: الثورة على المصريين

"العهد الأول من حكم إبراهيم باشا في سورية كان باعثًا على الرضا والاطمئنان. فقد خفّف شيئًا من الأثقال المالية التي كانت ترهق الشعب، وأخذ في تنشيط الزراعة والتجارة فضلاً عما أدخله من الإصلاح في الإدارة والقضاء، وقد شعر السوريون بحسن هذه الإدارة ولا سيما المسيحيون واليهود. ثم تطورت الأحوال إلى ما لا يرضي السوريين. لقد عاد إبراهيم باشا إلى تحصيل "الفردة"، وهي الفريضة يؤديها كل رجل مهما كان مذهبه، وإلى نزع السلاح من أيدي أهل البلاد وإلى التجنيد فضلاً عن احتكار الحرير في المناطق السورية جمعاء، وعما فرضه من أعمال السخرة والبلص[1].

"كل هذا نفّر الناس وفرّق ما كانت القلوب قد اجتمعت عليه وأوجب أن يثور السوريون على إبراهيم باشا بعد خضوعهم واطمئنانهم"[2].

---

(1) يقال: بَلَّصْتُهُ من مالِه تَبْلِيصًا: لم أدعْ عنده شيئًا. والعامة تعتبر البلص شبيهًا بالخوة، أو ما يفرض عليها من دون وجه حق. وفي الصفحة 30 من كتاب "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية" جاء أن البلصة هي، الجزاء النقدي الذي كان يفرضه الحاكم بوجه من اشتبه به بأنه ارتكب جناية ما.

(2) تاريخ جبل حوران، عارف أبو شقرا، ص 264 من كتاب "أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا"، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

استغلَّ نقمةَ الناسِ هذه على المصريين كل من العثمانيين والدول الأوروبية الرافضة أولاً قيام دولة فتية قوية في سوريا والطامعة ثانيًا في اقتسام تركة السلطنة العثمانية أو "الرجل المريض". أضف إلى ذلك صراع العداوة فيما بين الإنكليز والفرنسيين، حلفاء محمد علي باشا، هاتان الدولتان اللتان كانت تعمل كل منهما للاستيلاء على سوريا، إنكلترا لتأمين طريقها إلى الهند، وفرنسا لقطعه عن أعدائها الإنكليز. كذلك طمع روسيا في الاستيلاء على إستنبول والدردنيل ومن ثم الوصول إلى المياه الدافئة في البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي كانت الدول الأوروبية الأخرى تعتبره "الخطر الأعظم"[1].

فقام العثمانيون والإنكليز بتحريض الأهالي على الثورة ووزعوا عليهم السلاح والأموال. ثم عمت الثورة أراضي الإمارة اللبنانية وتدخل الإنكليز عسكريًا لمساندة الثوار "ففي شهر أيلول من سنة 1840 قصف أسطول مشترك بقيادة الأميرال السير تشارلز نابير (Napier) بيروت وجونية وجبيل وعكا، ثم أنزل جيشًا تركيًا يتراوح عدده بين 10 و15 ألف رجل... ووزع السلاح على الفلاحين في لبنان وراح يحرض اللبنانيين على الثورة ضد إبرهيم باشا"[2].

---

(1) راجع ص (29) المجلد الأول من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

(2) ص (25) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

ولا بأس في العودة إلى ما ذكرناه سابقًا مما جاء في تقرير المسيو بازيلي قنصل الروسية في بيروت إلى المسيو بوتينيف مندوب الروسية في الآستانة بتاريخ 11 حزيران سنة 1840 (11 ربيع الأول سنة 1256):

"وكما أن انضمام اللبنانيين إلى جيش إبرهيم باشا في سنة 1832 قد جرَّ معه خضوع كل سوريا فلا يبعد أن ثورتهم اليوم [1840] ستؤول إلى طرد المصريين نهائيًا من هذه البلاد إلا إذا أخمدت نارها بالتساهل مع أهالي الجبل المذكورين وإعطائهم ضمانات على المستقبل"[1].

وجاء في كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام": "فإن الإنكليز رأت أن تعيد هذه البلاد المسكينة إلى الأتراك وساعدتهم على ذلك فجاءت عمارة من بواخرهم ومراكب تركيا والنمسا في أوائل العام 1840 إلى بيروت لمساعدة الأتراك على إخراج جيش إبرهيم باشا من الشام ورده عن بلاد الأناضول بعد أن وصل إلى أبواب الآستانة وكسر جيوش الأتراك وفلّ جموعهم في كل معركة وفرُّوا من وجهه حتى صار على وشك امتلاك عاصمتهم الآستانة... وقامت البلاد مع الأتراك والإنكليز لمحاربة الجيش المصري فلما رأى محمد علي باشا أن قوته لا تكفي لمحاربة تركيا وإنكلترا وأن فرانسا التي كانت تعده بالمساعدة لم تفِ بوعدها وتركته ساعة الحاجة مع أنها كانت تغريه

(1) ص (7) المجلد الأول من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

على معاداة الإنكليز ومناوأتهم اضطرّ إلى التسليم بمطالب الدولة الإنكليزية والرجوع عن أملاك الدولة التركية وعلم أن الاغترار بمواعيد الفرنساويين والاتكال عليهم ساعة الشدة من آيات الجهل المبين فعاد عن بلاد الشام وسواها وعادت الأمور إلى ما كانت عليه..."[1].

وانتهت تلك الثورة بخروج المصريين، في العام 1840، من جميع الأراضي السورية وعودتها إلى حكم العثمانيين. أما الأمير بشير الثاني، فخُلع عن كرسي "إمارة لبنان" واعتُقل ونفي إلى مالطة، وعُين مكانه الأمير بشير الثالث.

وفي كلامه عن انتهاء ولاية الأمير بشير الثاني يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي: "حينئذٍ قدم إبرهيم باشا إلى بعلبك واستدعى إليه شريف باشا وبحري بك والأمير [بشير] وسألهم الرأي الأصوب فأجابه الأمير قائلا إنه عندي أن نرجع السلاح للنصارى والدروز ونرد لهم مال الإعانة فوافقه على ذلك شريف باشا وبحري بك وخالفهم إبراهيم باشا بقوله عندي إخراب السواحل لمنع الناس عن الإفرنج....ثم كتب السر عسكر إلى الأمير يخاطبه بالسلم وأرسل له فرمانا مع سفير يقول له إن سلمت للدولة قبل مرور ثمانية أيام طائعًا تبقَ واليًا كما كنت بل تكون الولاية لك ولذريتك من بعدك وإلا فلا قبول لك. فأجاب

(1) ص (70) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

الأمير معتذرًا بوجود أولاده وحفدته بين عساكر إبراهيم باشا وكان مغترًا بأخبار الفرنساوية"[1].

خامسًا: أحداث 1841–1860 ونظاما القائم مقاميتين والمتصرفية

في أيلول (سبتمبر) من العام 1841 اندلعت أولى "حركات" الاقتتال الطائفي المؤسف فيما بين أبناء الوطن الواحد الذين عاشوا قبل هذا التاريخ بوئام تام فيما بينهم، عنيت الموارنة والموحدين الدروز أبناء جبل لبنان. وفي العام 1842 استُبدِل نظام الإمارة بنظام القائم مقاميتين. والذي وصفه رفعت باشا، ناظر الخارجية العثماني، يومها، بأنه "بمثابة إشعال نار الحرب الأهلية".

وعن هذا النظام يقول واضع كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام": "وفي أول يوم من سنة 1843 تعين الأمير حيدر أبي اللمع قايمقامًا على النصارى والأمير أحمد أرسلان قايمقامًا على الدروز وظنَّ الناس أن قد امتنع القيل والقال.

"على أن هذه التسوية لم تعد بالفائدة المقصودة لأن الطائفتين كانتا مختلطين في أنحاء الجبل... إذ كيف يمكن لأمير النصارى أن يحكم بعض الأفراد الذين كانوا في قرى الدروز ولا يستاء الحاكم الدرزي الذي كانت مشاكلهم تقع في بلاده وكان يعدهم من رعاياه. ولم تخلُ بلدة من النصارى الذين كانوا عمالا ومزارعين

(1) ص (1318) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي لبنان في ظل الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد، إشراف نظير عبود، طبعة 1993، دار نظير عبود، بيروت، ص. ب. 11/8086.

لمشايخ الدروز يعيشون في أراضيهم...

"ولما كثرت الشكوى من النظام الأخير [نظام القائم مقـــاميتين] بدأ رؤساء الطائفتين والحكام يتخابرون ويرتأون الآراء الكثيرة للتوفيق بين مصلحة الطرفين... فلما رأى القوم أن المخابرات لم تُجدِ نفعًـــا عولوا مرّة أخرى على الحرب والقتال. وقال بطريرك الموارنة علـــى مسمع من الجمهور "إما أن يسود الدروز علينا أو أن نسود علـــيهم فلنبدأ بالاستعداد لأن الذي يضرب الضربة الأولى يصير أقـــرب إلى الفوز من خصمه"[1].

وفي أيار (مايو) من العام 1845 حصلت "الحركة" الثانية. وبعده نعمت البلاد بهدوء نسبـــي، ولكن النفوس لم تكن بعد قد صـــفت، إلى أن كانت الفتنة الكبرى في العام 1860 التي كانت شرارتها الأولى مع حادثة بيت مري في صيف 1859، وتتالت المناوشات بين أبنـــاء البلد الواحد إلى أن استعرت في أيار (مايو) 1860، و لم تنتهِ إلاّ بتدخل الدول الأوروبية عامة، وفرنسا خاصة التي تـــدخلت عســـكريا، ثمَّ بفرضِ نظام المتصرفية.

هذا النظام الذي أصبح أساسًا للنظام الطائفي الذي لم يزل سائدًا في لبنان إلى يومنا هذا. والذي، للأسف، عوضًا عن إلغائه، حول بعد مؤتمر الطائف في 1989 إلى "نظامٍ مذهبـــي" وكرّس في النصـــوص القانونية.

---

(1) ص (115–116) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

أسباب أحداث القرن التاسع عشر

(1841-1860)

أولاً: خطأ المؤرخين

يقول ابن خلدون: "وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينًا و لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط..."[1].

وفي مقالٍ منشور في مجلة أوراق لبنانية، يقول كاتبه: "ثم إن هناك قضية هامة أود أن ألفت نظركم إليها، وهي: أن كتب التاريخ التي تدرس في جميع مدارسنا تلم بتلك الحقبة من تاريخنا فتصورها بصورة تختلف عن الواقع كل الاختلاف إذ تزعم أن "الشر" قد انبثق من خلاف صبية صغار، ثم امتد إلى الأهل حتى عمَّ البلاد ودمرها وصبغ أرضها بدماء زكية يهدرها أخوة متناحرون.

(1) ص (16) من: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ضبط وشرح وتقديم د. محمد الإسكندراني، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1998.

وهذا برأيي خطأ فادح وافتئات على التاريخ مضـــر، إذ تصـــور المسألة كأنها حادثة طبيعية وقعت عرضًا وكان من الطبيعي أن تمتد كما امتدت. هل صحيح أن مجرد خلاف بين صبية صغار يـــؤدي عادة إلى كارثة وطنية فظيعة كتلك؟ أم هل من الطبيعي والعـــادي أن يحدث هذا بين أبناء وطنٍ واحدٍ عاشوا معًا بسلام ووئام علـــى مر قرون من الزمان؟ كلا... إذن، فكُتّاب التاريخ يخطئون حـــين يحسبون أنهم في تجنبهم لخوض التفاصيل وشرح الأسباب الحقيقية يخدمون المصلحة الوطنية، فهم يضرون بها من حيـــث يريـــدون خدمتها"[1].

وفي مثل هذا وقع أيضًا كثيرون من كتّاب التاريخ اللبنـــاني، وخاصة في الكتب المدرسية، فلم يبحثوا بالعمق عـــن الأســـباب الحقيقية الفاعلة التي كانت وراء تلك الأحداث المؤســـفة، بينمـــا أسهب كثير منهم في وصف مفصل لمراحل الاقتتال غير مُـــنحِّين جانبًا عواطفهم، كلٌّ حسب أهوائه، وهذا مما يعمق الشرخ بـــين أبناء الوطن الواحد.

ثانيًا: في الأسباب

"إن الوثائق الرسمية المتوفرة في سجلات وزارتي الخارجية في لندن وباريس تثبت بما لا يرقى إليه الشك أن الحرب الأهلية في لبنـــان لم تكن مجرد حادث محلي، بل كانت جُزءًا من المسألة الشرقية، وعليـــه فإن المسؤولية النهائية عن هذه الأعمال يجب أن تـــوزع، بصـــورة

(1) ص (427) من مقال بعنوان: الحركات في لبنان، أيضًا، أو الفتن المذهبية، بقلم ي. ن، مجلد 1، جزء 9، أيلول 1955.

مباشرة أو غير مباشرة على جميع الدول المعنية – تمامًا كما هي الحال في أخطاء السهو والأخطاء المتعمدة"[1].

ونقرأ في مقدمة تقرير بورسييه حول أحداث العام 1860 والمؤرخ في تموز (يوليو) 1860: "ساهمت ثلاث قوى، هي تركيا وإنكلترا وفرنسا، وبنسب متفاوتة، بمصائب الأمة المارونية الصغيرة: الأولى بالتعصب وسوء نية مسؤوليها، والثانية بروح الطموح والاستبداد في سياستها هي وعملائها، والثالثة بما أوحته للموارنة من التعاطف في جميع الأوقات والاستعداد لحمايتهم والدفاع عنهم، ولكن من دون أن تقدم لهم أيًّا مما وعدتهم به"[2].

وهذا يوسف إبرهيم يزبك – محرر مجلة أوراق لبنانية – يقول: "أما الخرافة المعششة في الأذهان أن "سبب" الحركات في لبنان تنافر ديني بين طوائفه فهذا وهمٌ لا صحة له.

"ولهذا نؤكد، ومعنا الحقيقة: أن "الحركات" لم تثرها في الأصل أحقادٌ مذهبية ومعتقدات دينية. وإنما أثارتها، في الواقع، مطامع استعمارية من الخارج، وعوامل اقتصادية واجتماعية من الداخل، وألبستها ثوبًا طائفيًا"[3].

ويقول لويس دو باتديكور: "منذ عدة قرون، وفضلا لنظامه،

---

(1) ص (31) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) Mémoires sur les causes et origines des évènements de 1860 au Mont Liban - Par A. Bourcier St. Chaffray (Juillet 1860)، محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية (PDF 64640 251 503 201).

(3) ص (333) من: مجلة أوراق لبنانية، مجلد 1، الجزء السابع، تموز 1955.

تمتع لبنان بسلام عميق جدًا. وإذا كانت الأمور قد تغيرت الآن، فهذا لا يعني أن السبب عائد إلى التعصب الإسلامي، فمهما كان الوضع متأزما، فمن المؤكد أنه ليس أكثر صعوبة الآن عنه في الأيام الأولى للإسلام. فلو لم يلقِ طموحُ الإنكليز الشقاق بينهم لاستمر السكان المسيحيون في لبنان على عيشهم السابق[1].

و"إذا كان صحيحًا أن تطورات الحضارة الجديدة، ستجعل سوريا في وسط العالم، فهذا لا يعني أن القضية دينية فقط، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو تحقيق الازدهار في أوروبا"[2].

وفي رأينا هناك عوامل وأسباب عديدة ومتشعبة ساعدت وأدت إلى تلك الأحداث المؤسفة التي نتج عن تسويتها هذا النظام الطائفي

---

(1) LA FRANCE AU LIBAN, LOUIS DE BATTDICOUR, PARIS, E. DENTU, LIBRAIRE 1 CHALLAMEL AINE - Palais - Royal. 5, rue Jacob, 5.

"Depuis des siècles, grâce à son organisation, le Liban jouissait donc d'une paix profonde. Si les choses ont changé maintenant, il n'en faut pas chercher la cause dans le fanatisme musulman, qui, tout exalté qu'il est, n'est certainement pas plus redoutable aujourd'hui qu'aux premiers temps de l'islamisme. Les populations chrétiennes du Liban n'ont pas dégénéré et eussent pu parfaitement résister aujourd'hui comme alors, si l'ambition de l'Angleterre ne fût venue jeter la pomme de discorde au milieu d'elles".

(2) LA FRANCE AU LIBAN, LOUIS DE BATTDICOUR, PARIS, E. DENTU, LIBRAIRE 1 CHALLAMELAINE - Palais - Royal. 5, rue Jacob, 5.

"S'il est vrai que par les nouveaux développements de la civilisation, la Syrie se retrouve placée au centre du monde, il ne s'agit donc plus seulement là d'une question, religieuse, mais de l'affaire la plus importante pour la prospérité de l'Europe".

الذي جعل لبنان أرضًا خصبة لأحداث متعاقبة، كانت تنتهي في كل مرة بتسوية، بمثابة مسكنات لا تعالج الداء بل تزيد الشرخ بين أبناء طوائفه التي بدأت باثنتين وراحت تزداد عددًا حتى أصبحت في يومنا هذا ثماني عشرة، بحيث غدا هذا النظام الطائفي أقوى من الدولة مما جعلها من أفشل دول العالم.

وسنبين فيما يلي ما أوصلنا البحث إليه من تلك العوامل والأسباب:

أ – العوامل النفسية:

1 – الحزبية القبلية وما تلاها:

لقد ورث اللبنانيون عصبية قبلية تعود جذورها إلى ما قبل الإسلام وهي القيسية واليمنية. وبسببها كانت تستعر فيما بينهم معارك أودت بأرواحٍ كثيرة. وقد كانت آخرَ هذه المعارك وأشرسَها في عهد الأمير حيدر الشهابي، معركةُ عين دارة (في الشوف اللبناني) في العام 1711 انتهت بالقضاء التام على اليمنية، وبعدد لا يُستهان به من القتلى، وبنزوح معظم من بقي من اليمنية، عن الشوف إلى أنحاء متفرقة في لبنان وسوريا، وأهمها جبل حوران. كما رحل عنه من القيسية من هاله ما حصل بين أهله وإخوانه. ومنهم من تحول أيضًا عن مذهب التوحيد قنوطًا. كل هذا أضعف الوجود الدرزي في لبنان.

"ولم تكد تلك العصبية تلفظ أنفاسها حتى كانت هنالك عوامل من سياسة الحاكم وروح العصر تهيئ شكلا ثانيًا من الانقسام بدأ مجزءاً في الشوف والمتن ثم توحد في غرضيتين انقسم لبنان بأسره

لانقسامهما"[1]. فنشأ انقسامٌ جديدٌ شبيه بالانقسام الأول في كثير من أحواله وعُرف (بالغرضية): غرضية شقراوية وغرضية صمدية (نسبة إلى عائلتي أبو شقرا وعبد الصمد اللتين تقطنان بلدة عماطور – الشوف حتى يومنا هذا). وقد تناول هذا الانقسام المدة الباقية من حكم الأمير حيدر وطوال مدة الأمير ملحم (1729–1754) إلى أن وُلِّيَ الأميران أحمد ومنصور الشهابيان معًا (1754–1762)، فنشأ انقسام جديد عرف بالجنبلاطي – اليزبكي نسبة إلى آل جنبلاط وآل يزبك جد آل عماد، فتقمصت الغرضية الجنبلاطيةُ الشقراويةَ وتقمصت الغرضيةُ اليزبكيةُ الصمديةَ[2].

والمؤسف أيضًا أنهم كانوا، في كل خلافاتهم، يطبقون ذلك المبدأ القائل: "انصر أخاك ظالمًا كان أم مظلومًا"، من دون أن يتبينوا الأسباب أو حتى النتائج التي كانت تنعكس عليهم دومًا بالخسائر في الأرواح والماديات.

2 – طبيعة العرب بالانتماء الديني:

يقول ابن خلدون: "العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك أنهم لِخُلُقِ التوحش الذي فيهم أصعبُ الأمم انقيادًا بعضهم لبعض للغِلْظَة والأَنفة وبُعد الهمة والمنافسة في الرئاسة. فقلما تجتمع أهواؤهم

(1) ص (367) من: أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

(2) تاريخ جبل حوران، عارف أبو شقرا، ص 233 من كتاب: "أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا"، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خُلُقُ الكِبْرِ والمنافسة منهم فسهُل انقيادهم واجتماعهم"[1].

وهذا شارل جوانين (ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت) يعترف باللعب على الوتر الديني مع الموارنة إذ يقول: "هذا أمر غريب في لبنان حيث كان النفوذ الفرنسيُّ كبيرًا دائمًا دون شريك له وحيث أن حماية فرنسة للكاثوليك سببت لها منذ أكثر من مئتي سنة ميلاً شديدًا وحماسيًا... وأعترف بأنني كنت متكلاً على الأكثر على التعصب الذي كان يصوّر لهم الإنكليز كأنهم غير مؤمنين، وكان ما يزال يجلب حتى اليوم على هذا الشعب [الإنكليز] سخطًا حقيقيّ الخطر في لبنان"[2].

3 – اعتياد اللبنانيين على القتال والتقاتل:

منذ أن استوطنه التنوخيون ثم المعنيون وحتى نهاية حكم الأمير بشير الشهابي الثاني، فرضت أحوال وظروف عيشة سكان جبل لبنان على كل فرد منهم أن يكون مقاتلا. في البدء لمحاربة الصليبيين، ثم الصراع القبلي والعائلي بين الموحدين الدروز من قيسي – يمني إلى شقراوي – صمدي ثم جنبلاطي – يزبكي، بالإضافة إلى الصراع مع

---

(1) ص (149) من كتاب: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ضبط وشرح وتقديم د. محمد الإسكندراني، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1998.

(2) من تقرير شارل جوانين (ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت) إلى مسيو دي ملواز، قنصل فرنسا في بيروت، مؤرخ في أول تشرين الأول 1840، تعريب لور وإبراهيم يوسف يزبك، ص 519–520 وما يليهما من المجلد الثالث، أوراق لبنانية، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

الولاة العثمانيين بعدما أصبح الجبل إمارة. كل هذه الأمور جعلت اللبنانيين يعتادون القتال والتقاتل فيما بينهم.

وعند كلامنا عن عيش اللبنانيين بوئام فيما بينهم، أدرجنا ما قاله الشيخ ناصيف اليازجي في كتابه (رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي)، ولا بأس في تكرار بعضه: «وكان في البلاد عداوات كثيرة تقع بين الطوائف ويجري بينهم وقائع شتى ويقتل منهم خلق كثير. فكان يتعصب لكل فئة جماعة من أصدقائهم يحضرون القتال معهم ويُلقون أنفسهم إلى المهالك تبرعًا من غير سبب يتعلق بأنفسهم. ولا تزال هذه العصبية بينهم يتوارثونها خلفًا عن سلف إلى ما شاء الله من الزمان. ولم يكن في ذلك فرق بين النصارى والدروز فكان كل فريق منهم يتعصب للآخر كما يتعصب لقومه»[1].

4 – الصراع الطبقي:

قلنا إن المسيحيين انتقلوا إلى القسم الجنوبي من جبل لبنان طلبًا للأمن والرزق، وقد كانت الغالبية العظمى من سكانه وملاكي أراضيه من الموحدين الدروز، فعمل المسيحيون لدى هؤلاء في الزراعة وغيرها. والشعور بالعداء ما بين العامل ورب العمل قديمٌ جدًا. وقد يزيد في هذا الشعور جور بعض الإقطاعيين، إن لم نقل جلّهم.

كما أن المدارس التي فتحتها الإرساليات، وخاصة الفرنسية منها، أوجدت طبقة من المتعلمين، وجلّهم من المسيحيين، أصبحوا

(1) ص (367) من كتاب: أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

على اتصال مع الغرب فتأثروا بمبادئ الثورة الفرنسية وما نتج عنها. كما نشأت عن ذلك طبقة التجار الأغنياء.

5 – نتائج الصراع بين البشيرين:

منذ أن جلا الشيخ بشير جنبلاط وأعوانُه إلى جبل حوران إثر بدء الصراع بينه وبين الأمير بشير الثاني في حوالي العام 1822، حيث مكثوا حوالي العشرين شهرًا، ثم بعد شنقه في العام 1825، وتشتيت كثيرين من وجهاء الدروز، وضع الأمير بشير يده على أملاكهم ووزعها على أبنائه وأعوانه كما مرَّ معنا سابقًا.

ولما عاد وجهاء الدروز إلى الجبل بعد جلاء المصريين وخلع الأمير بشير الشهابي الثاني، وجدوا معظم الدروز يعانون من حالة البؤس سواء في أملاكهم أم في أحوال معيشتهم بسبب تعسف وظلم الأمير بشير وكثيرين من أتباعه من أصحاب النفوس الدنيئة من الموارنة. فكان هذا عاملا إضافيًا في زيادة الشعور بالعداء بين أبناء الطائفتين خاصة بعدما استعاد الدروز أملاكهم.

وعند كلامه عن الثورة ضد الأمير بشير الثاني، المعروفة بحركة المختارة، يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي: "وأشاع بعضُ ذوي الغايات أن القصد بثورة المختارة هو لتسلط الدروز على النصارى. وكان ذلك لينفروا الناس من الذهاب إلى المختارة فذاعت هذه الكلمة في البلاد"[1].

وفي كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام": "ومن ثمَّ أُرجعت

(1) ص (1273) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي لبنان في ظلِّ الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد، إشراف نظير عبود، طبعة 1993، دار نظير عبود، بيروت، ص. ب. 11/8086.

مشايخ الدروز [بعد طرد المصريين من سوريا في 1840] إلى إقطاعها فرأوا من النصارى غير ما كانوا يعهدونه من الطاعة لهم واشتموا منهم رائحة التمرد فعدوا ذلك مروقًا عن الطاعة. وقد زاد الطنبور نغمة سفاه الأمير بشير [الثالث] واحتقاره لهم وذلك ما لم يعتادوه من أسلافه فأخذت الأمور تتعاظم بمداخلة أهالي دير القمر في شؤون مشايخ الدروز بإقطاعهم ومساعدتهم للنصارى المختلطة من جميع الطوائف النصرانية بدون استثناء"[1].

6 – نتائج حرب اللجاه في جبل حوران:

في العام 1837، كما قلنا سابقًا، ثار دروز جبل حوران بوجه الحاكم المصري رافضين أمره بسوق أبنائهم إجباريا للانضمام إلى عسكره، ثم ما لبثت هذه الثورة أن تحولت حربًا امتدت شهورًا، وسميت "حرب اللجاه". أما ما تركته هذه الحرب في نفوس أبناء الطائفتين فكان أخطر بكثير مما ذكرناه آنفًا. إذ بعد أن أمر محمد علي باشا الأمير بشيرًا بتجنيد حوالي ألف ومائتي مقاتل من الدروز وإرسالهم للقتال إلى جانب جيشه في الأناضول، أمره بتجنيد ما يزيد عن الأربعة آلاف مقاتل من الموارنة وإرسالهم إلى حاصبيا لقتال الدروز[2]. مع الإشارة إلى أن دروز جبل حوران تربطهم بدروز جبل

(1) ص (283) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

(2) ص (1303) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي لبنان في ظلِّ الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد، إشراف نظير عبود، طبعة 1993، دار نظير عبود، بيروت، ص. ب. 11/8086.

لبنان روابط القربى والنسب. فكانت النتيجة أن سالت الدماء بين الطرفين مما ساهم في إذكاء شعور العداء بينهما. وراح الحقد وشعور العداء يتجذران في نفوس أبناء البلد الواحد.

وإبان ثورتهم على المصريين بعث أهالي جبل لبنان، بتاريخ 12 حزيران 1840 (12 ربيع الأول 1256)، برسالة إلى الأمير أمين نجل الأمير بشير جاء فيها ما يلي:

"هذا ومنذ زمن لمَّا أُعلنت الحرب على إخواننا أبنا [أبناء] أمتنا سكان حوران الذين أرهقوا بالمظالم وزعت علينا الحكومة سلاحًا وأرسلتنا لقتالهم فحاربناهم مدة سنتين متواليتين فمات منا كثيرون إن من جراء الأتعاب وإن في المعارك وقد كلفتنا هذه الحملة خلا النفقات والأضرار نحوًا من ألفي كيس"[1].

7 – اختلاف شعور المسيحيين نحو الأتراك عنه عند الدروز:

"العامل الرئيسي لهذا الشعور العدائي نحو الأتراك هو أن المسيحيين اللبنانيين كانوا يعتبرون أنفسهم مواطنين غرباء في بحر شاسع من السيادة التركية. وبكلام بسيط، لم يشعروا في ظل الحكم العثماني بأن الحكومة العثمانية حكومتهم"[2].

بينما كان الدروز وسائر المسلمين يشعرون بأنهم يعيشون في كنف دولتهم وتحت سلطة الخليفة أمير المؤمنين.

---

(1) ص (8) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

(2) ص (46) من كتاب: نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، دار النهار للنشر، بيروت.

8 – اقتناع الموارنة بأنهم فرنسيون وتبعيتهم لفرنسا:

قبل أن ينزل الجيش الفرنسي في بيروت (في العام 1860) بعث السير هنري بولور (Bulwer)، السفير البريطاني في إستانبول، برسالة إلى وزير خارجية بريطانيا، اللورد ج. رسل (Russell) جاء فيها: "إذا نزل جيش فرنسي في بيروت فإن جزءًا كبيرًا من السكان الذين يعتبرون أنفسهم فرنسيين (موارنة لبنان) سينضم فورًا إلى الجيش الفرنسي"[1].

ويقول زين نور الدين زين: "أما تاريخ نشأة العلاقات الفرنسية ببلاد المشرق فبعضه أسطوري وبعضه الآخر ينطوي على شيء من الحقائق. جاء الصليبيون وأسس غودفري دي بويون (Godfrey de Bouillon) مملكة القدس الأمر الذي عده الفرنسيون في الدرجة الأولى انتصارًا فرنسيًا. ويدعون أن القديس لويس عند وصوله إلى عكا بعد الإفراج عنه في مصر حيث كان أسيرًا بعث برسالة إلى "أمير الموارنة في جبل لبنان" مؤرخة في 21 أيار من سنة 1250 جاء فيها: "... أما نحن وأولئك الذين سيخلفوننا على عرش فرنسا، فإننا نجيز لأنفسنا أن نوفر لسموكم ولشعبكم الحماية ذاتها التي نوفرها للفرنسيين أنفسهم، كما أننا سنعمل دومًا ما ينبغي عمله لتوفير السعادة لكم"[2].

---

(1) Great Britain, F.O., Correspondence Relating the Affairs of Syria (confidential) April, 1850-1861, part I, p. 114. ص (31) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) (Testa, Baron I. de, Recueil des Traités de la Porte Ottomane, Tome Troisieme, Premiere Partie, p. 140, n.). ص (33) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

وقد جاء أيضًا في "كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام": "وكان الموارنة أعوانًا لقناصل الفرنسيس يعاونونهم على مد نفوذهم ويجاهرون بالانتماء إلى الدولة الفرنساوية..."[1].

"وكان الموارنة لسوء حظ البلاد وحظهم يعلمون الناس أن هؤلاء الإنكليز كفار ليسوا على دين مارون يجب على أبناء الطائفة المارونية أن يقاوموهم ويضادوهم أينما حلوا"[2].

ويقول شارل جوانين كما سبق أن ذكرنا: "هذا أمر غريب في لبنان حيث كان النفوذ الفرنسيُّ كبيرًا دائمًا دون شريك له وحيث أن حماية فرنسة للكاثوليك سببت لها منذ أكثر من مئتي سنة ميلاً شديدًا وحماسيًّا...."[3].

ونقرأ في تقرير بورسييه حول أحداث العام 1860 والمؤرخ في تموز (يوليو) 1860: "ومن دون أن يكون لهم بعد حصة بحجم ما حصلوا عليه منذ العام 1840، وحدهم ممثلو فرنسا، حماة المسيحيين في

---

(1) ص (128) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

(2) ص (71) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

(3) من تقرير شارل جوانين (ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت) إلى مسيو دي ملواز، قنصل فرنسا في بيروت، مؤرخ في أول تشرين الأول 1840، تعريب لور وإبراهيم يوسف يزبك، ص 519–520 وما يليها من المجلد الثالث، أوراق لبنانية، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

المدن، كانوا محط التقدير ويتمتعون بتأثير كبير. وكانت محفوظة في مخيلة الموارنة والإكليروس والأمراء، التقاليد الموروثة من عهد الصليبيين، والتي حصل عليها أسلافهم، وأسماء بعض ملوك فرنسا في القدس، وأسطورة سفر الأمير فخر الدين، بعد صراعه مع الأتراك، إلى بلاط فرنسيس الأول، ورسائل لويس الرابع عشر إلى البطاركة الموارنة وقومهم، والحملة إلى مصر، ومعركة القديس جان داكر[1]، كانت كلها حلقات تربط، عن بعد، مصير الموارنة بالعهود الفرنسية الكبرى"[2].

9 – اقتناع الدروز بنية طردهم من جبالهم ومن الإمارة التي أسسوها ودور الإنكليز في استمالتهم وإثارة حقدهم ومدهم بالسلاح:

يقول المؤرخ الدكتور أسد رستم: "إن التحريات والاستقصاآت تثبت أن الدروز هم الذين أنشأوا كيان لبنان السياسي وأن تاريخ لبنان بما فيه عهد الأمير بشير، هو تاريخ الدروز؛ وما بعد ذلك فهو التاريخ اللبناني"[3]. ويعزز هذا عبارات وردت في الفرمان السلطاني بتاريخ 3 أيلول من العام 1840 القاضي بتعيين الأمير بشير الثالث هي التالية: "نعينه منذ الآن أميرًا لجبل الدروز"، و"عُينتَ أميرًا للدروز"

(1) Le siege de Saint-Jean-d'Acre en 1191 de la troisième croisade.

(2) Mémoires sur les causes et origines des évènements de 1860 au Mont Liban - Par A. Bourcier St. Chaffray (Juillet 1860)، محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، و 251 503 201) (PDF 64927 251 503 201) (PDF 64858.

(3) ص (714) من كتاب: "أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا"، تحقيق أسامه كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

و"إننا عيّنا الأمير بشير قاسم أميرًا للدروز"[1].

لقد كان راسخًا في نفوس الدروز وجود خطة لطردهم من جبالهم، بعد أن كانوا أسيادها لقرون عديدة. ويؤكد هذا ما ورد في بداية روايتهم عن حوادث لبنان حيث جاء: "من المشهور لدى الجميع وقد عم الخبر كل الأصقاع أن الموارنة وجهوا مساعيهم منذ سنة 1257 هجرية (1841 م) إلى طرد الدروز من جبالهم (لبنان الشرقي والغربي) وتوطيد أركان استقلالهم فيها..."[2].

وقد ألمع إلى هذا الأمر اللورد دوفرين في رسالتيه إلى السير بولفر (Bulwer) المؤرختين على التوالي في 14 و15 تشرين الثاني 1860.

إذ قال في الأولى: "لما كان إقصاء طائفة من سكان النواحي المختلطة في لبنان عنها يمكن أن يظهر للجاهلين أحوال البلاد بمظهر أفضل طريقة تكفل عدم وقوع النزاع بين القبائل التي تأهله أريد أن أغتنم هذه المناسبة لأوضح لسعادتكم الأسباب التي تحول دون تنفيذ هذا المشروع في الآونة الحاضرة"[3].

---

(1) ص (21 و22) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، تعريب فيليب وفريد الخازن، الطبعة الثانية 1983، الحازمية – لبنان. وكانت الطبعة الأولى في العام 1910.

(2) من اللائحة المرفقة بعريضة مرفوعة "من رؤساء الطائفة الدرزية إلى ملكة إنكلترا" على أثر توقف القتال في أحداث العام 1860، وقد "أوصلها المستر موريس مدير جريدة التيمس إلى اللورد روسل (Russell) وزير خارجية إنكلترا في 15 أيلول 1860"، راجع ص (306): مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية، المجلد الثاني.

(3) ص (39) من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، المجلد الثالث، تعريب فيليب وفريد الخازن، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية 1983.

وقال في الثانية: "إن غايتي من هذه الرسالة إيقاف سعادتكم على ملخص الترتيبات التي سيطرحها مندوب فرنسا على أبحاث رُصفائه على ما أُرجّحُ بخصوص تنظيم جبل لبنان:

"ويمكن أن يُقال إن قوام مشروعه إنشاء إمارة مسيحية مستقلة في قسم من لبنان يمتد من شماليه حتى نهر الليطاني بما فيه كلُّ الجهة الغربية وشواطئها البحرية وستحصى مرافئ طرابلس وبيروت وصيدا في هذه الإمارة المستقلة وتنزع تمامًا من يد الحكومة التركية.

"فمع كرور الأيام لا بد للدروز وسائر الطوائف الغير [غير] المسيحية من أن تستنسب الجلاء عن هذه الإمارة الجديدة لاختلاف سكانها عنهم مذهبيًا فتصبح إمارة لبنان ملجأً أمينًا متسع الأطراف ويتسنى لمسيحيي دمشق وسائر أنحاء سوريا أن يهاجروا إليها"[1].

ونقرأ في كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام" ما يلي: "فجعل الموارنة يفتخرون بالأمر ويتباهون بمساعدة فرانسا لهم ويقولون إنهم سوف يسحقون الدروز سحقًا وينزعون كل سلطة من أيديهم.... وأصدر بطريرك الموارنة في ذلك الحين منشورًا إلى أهل طائفته شدد عزائمهم فيه على المجاهرة بالعدوان"[2]. "ثم أتى الإكليروس الماروني

(1) ص (48) المجلد الثالث من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

(2) ص (74–75) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام – المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

كل حيلة لإقناع الناس أن تلك الحرب دينية وأنه يجب على كل نصراني أن يقوم لمحاربة الدروز والمساعدة على اقتلاع آثارهم وطردهم من جبل لبنان"[1].

ولما لم يتمكن الإنكليز من استمالة الموارنة راحوا يستميلون الدروز إلى جانبهم، ويقول الكولونيل روز في تقريره بتاريخ 1 تشرين الأول (أكتوبر) 1841: "إن الموارنة مستسلمون نفسًا وجسدًا إلى فرنسا... وعليه فلم يبقَ لإنكلترا أن تختار في الأمر بل أمسى من المحتم عليها عضدُ الدروز"[2].

ويقول بورسييه: "لم يكن صعبًا على الكولونيل روز أن يفهم أنه لن يتمكن أبدًا من مدِّ نفوذه على الموارنة، لأن تعاطفهم الغريزي سيبعدهم دائما عن ذلك على الرغم من الجهود التي يبذلها، ما جعله يترك خطه السابق ليضع في الدروز، وحدهم، كل آماله؛ فاعتقد أن وضع السلطة والحكومة في أيديهم سيجعله مكسبًا لا رجعة فيه لإنكلترا، فبدأ من دون إضاعة الوقت في العمل على تحقيق ذلك الهدف. وراح يعمق علاقته معهم أكثر فأكثر، وأغرقهم بظواهر العطف والصداقة. وكان يرى أن الأمير أمين أرسلان هو "الرجل الأنسب لمشاريعه [أي الكولونيل روز]، ولمح له إمكانية حلوله يوما ما

(1) ص (100) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام – المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

(2) ص (73) من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، المجلد الأول، تعريب فيليب وفريد الخازن، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية 1983.

محل الأمير بشير ملحم كحاكم للبنان، وفي الوقت نفسه زرع في نفوس مشايخ الدروز بذور الحسد والكراهية ضد الموارنة، وأوحى إليهم بأن إذا كان من يحكمهم أميرا من الموارنة، فهذا يعني أنهم [أي الدروز] أقل منهم [أي الموارنة] قدرًا، فلذا يتوجب عليهم [الدروز] ليس فقط أن يكونوا متساويين مع المسيحيين بل أيضًا أن يكونوا هم قادتهم"[1].

"وتستقر الليدي إستر لوسي ستانهوب، في جبل لبنان وهي الإنكليزية بنت أخت ويليام الثاني وحفيدة اللورد شاتام، وتتخذ لها مسكنًا في قلب المنطقة الدرزية وتوثق علاقتها معهم، خدمة لمصلحة بلادها وتلعب دورًا مهما في مدهم بالسلاح"[2].

10 – تأثير الغرب:

"إن اللبنانيين كانوا على صلات مع الغرب أوثق من الصلات التي كانت قائمة بين الغرب وسائر الأقطار العربية في الشرق الأدنى. فكان لبنان أشبه بممر تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الآسيوية في الإمبراطورية العثمانية، مما جعل من الطبيعي أن يكون اللبنانيون أول من تأثر بالحضارة الغربية. وكان معظم المسيحيين يتجهون بأنظارهم نحو الغرب المسيحي، ولا سيما فرنسا، على أنها

(1) Mémoires sur les causes et origines des évènements de 1860 au Mont Liban - Par A. Bourcier St. Chaffray (Juillet 1860)، محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية (71308 PDF 251 503 201) و (251 503 201 71353 PDF) و(71504 PDF 251 503 201).

(2) ص (429) من كتاب: الفرعون الأخير محمد علي، تأليف جيلبرت سينويه، ترجمة عبد السلام المودني، طبعة 2012 – منشورات الجمل ص. ب. 5438–113 بيروت – لبنان.

منارة من منائر الحضارة الغربية"[1].

هذه العوامل النفسية مجتمعة، أضف إليها الجهلَ الـــذي كـــان مسيطرًا على عقول معظم العامة من الطائفتين، جعلت قلوب أبنائهما أرضًا خصبة لإشعال نار الفتنة والتقاتل لأتفه الأسباب.

ب – العوامل الأخرى:

1 – سياسة المصريين وطمع محمد علي باشا:

لقد ارتكب محمد علي، في معاملة اللبنانيين، الخطأ الذي جعلـــه يخسر ولاءهم، بل كان أيضًا عاملاً مهمًّا لإشعال ثورتهم، فبعد حوالي السنتين على مساندتهم له في احتلال سوريا، وعوضًا عن مكافـــأتهم راح يفرض عليهم الضرائب المجحفة، ويظلم ويتعسّف في تحصـــيلها مضيفًا إلى ذلك سياسة التفريق فيما بينهم باستغلال اختلاف انتمائهم الديني، فيفرض على المسيحيين قتال إخوانهم الموحدين الدروز إبـــان ثورة دروز جبل حوران، في العام 1837، رافضي التجند في عسكره. ولا ننسى نصيحته للأمير بشير الشهابـــي الثاني، يوم تم مـــا سمـــي بـــ "التحالف" فيما بينهما، في زرع الفرقة بين رعيته ليسود علـــيهم، مقابل مساندته له على الاحتفاظ بكرسي الإمارة. ونورد فيما يلـــي بعض الشواهد على ذلك:

- في سياق حديثه عما دار بين محمد علي باشا والأمير بشـــير الثاني في العام 1822، أي قبل عودة هذا الأخير إلى جبـــل لبنان، يقول الأمير حيدر أحمد الشهابـــــي: "ثم صـــرف

(1) ص (47) من كتاب: نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، الطبعـــة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1979.

العزيز [محمد علي] جميع الحاضرين وأمر ببقاء الأمير [بشير] وأسرّ إليه جميع ما يرغبه منه في جبل لبنان من الخدمة عند الحاجة لأنه كان عازمًا على تملك بلاد الشام بالسيف... "ثم أنعم العزيز [محمد علي] على الأمير [بشير] وولديه بثلث [ثلاث] فراء وثلثة [ثلاثة] من الخيل الجياد المزينة وأكرمه بمائة وخمسين ألف غرش وأذِنَ له بالسفر مع السلاحدار وأوصاه به وودعه. وأمر العزيز الأميرَ أن يهيئ أربعة آلاف مقاتل من بلاده ليرسلها إلى بلاد المورة لمعونة ولده إبراهيم باشا إذا مسّت الحاجة إلى ذلك"[1].

- وفي كلامنا عن سياسة الأمير بشير الثاني، سنرى الجواب على السؤال عما طلب الباشا من الأمير ولماذا كان ذلك سرًّا.
- جاء في نشرة الثوار اللبنانيين – إبان ثورتهم على المصريين – إلى مواطنيهم بتاريخ 8 حزيران 1840 (8 ربيع الأول 1256) ما يلي: "ومنذ ذلك الحين نهجت هذه الحكومة [المصرية] نهجًا مشومًا مضرًّا في بلادنا بتفريق عصبتنا متوسلة إلى غايتها هذه بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية فطلبت سلاحنا ونزعته أولاً من الأنحاء الضعيفة ثم جمعته تدريجًا من الجميع واستعانت بذات وسائل الخداع لتجنيدنا فتسنى لها استعباد

(1) ص (1263–1264) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي لبنان في ظلّ الإمارة الشهابية علق على حواشيه الدكتور مارون رعد إشراف نظير عبود، طبعة 1993، دار نظير عبود، بيروت، ص. ب. 113/8086 بيروت – لبنان.

عدد وافر من إخواننا فثقل نيرها عليهم بحيث آثر الجميع الموت على البقاء تحت سيطرتها فثاروا وقتل في سبيل إخضاعهم كثير من الجنود النظامية"[1].

- وبتاريخ 12 حزيران 1840 (12 ربيع الأول 1256) كتب أهالي جبل لبنان إلى الأمير أمين نجل الأمير بشير [الثاني] ما يلي: ".. فإنه منذ بُسط حكم سمو محمد علي على هذه البلاد فإن أهالي لبنان كانوا في مقدمة من أدى الطاعة وذهبوا مع جيشه إلى فتح دمشق ومقاتلة الجنود في حماه وطرابلس ولما نزع أهالي صفد ونابلس والنصيرية والمتاولة إلى الثورة توجه أهالي هذا الجبل مع سعادة الأمير بشير فكسروهم وأخضعوهم لحكومة الباشا المشار إليه أملاً في إعفائهم من الضرائب وجعلهم بنجوة من المظالم لكنه مكافأة لهم... طلب إليهم تسليم سلاحهم والتجند في عسكره فألحقت بهم هذه المعاملة أضرارًا جسيمة تنبو عنها الأسماع إذ سبيت نساؤهم وأنزل بهم أشد أنواع العذاب وعُلّقوا على الأشجار ثم ضرب عليهم "الفردة"[2] وأوجب استيفاءها حتى من الذين ماتوا أو قتلوا في الحرب في خدمة حكومته.... هذا ومنذ زمن لمّا أُعلنت الحرب على إخواننا أبنا [أبناء] أمتنا سكان حوران الذين أرهقوا بالمظالم وزعت

(1) ص (3) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

(2) ضريبة يؤديها كل رجل مهما كان مذهبه.

علينا الحكومة سلاحًا وأرسلتنا لقتالهم فحاربناهم مدة سنتين متواليتين فمات منا كثيرون إن من جراء الأتعاب وإن في المعارك وقد كلفتنا هذه الحملة خلا النفقات والأضرار نحوًا من ألفي كيس. إنما إذا التفتت الحكومة إلى الله ورفعت عنا المظالم فنحن مستعدون للخضوع لها وإطاعة أوامرها إذ لا نقصد بنهضتنا إنشاء حكومة بدلها بل، جلّ غايتنا التملّص من ربقة هذا الاستبداد الذي لا يُطاق... ما نلتمسه من سمو الخديوي: أن يقتصر على أخذ "ميري وجوالة"[1] ويرفع عنا كل مظلمة وسخرة وأن يتعهد بذلك على يد سفيري إنكلترا وفرنسا أو على يد قناصلهما في هذه البلاد..."[2].

- وجاء أيضًا في عريضة أهالي جبل لبنان إلى الكونت دي بونتوى سفير فرنسا في الآستانة بتاريخ تموز 1840 (جمادى الأولى 1256)، ما يلي: "فهل جهلت فرنسا الأضرار التي ألحقها بنا هذا الرجل [المقصود محمد علي باشا] وأنواع المظالم التي أرهقنا بها منذ ساعدته الأقدار على امتلاك سوريا؟ إن هذه الشرور لا تحصى ويكفي أن نقول إن مظالمه الفظيعة وضروب استبداده وجوره دفعتنا إلى اليأس

(1) الميري: ضريبة على الأراضي. والجوالة: هي الجزية التي كانت تؤخذ من غير المسلمين.

(2) ص (8–10) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 2).

وأحيت بنا الرغبة الشديدة في الرجوع إلى كنف حكومة جلالة سلطاننا عبد المجيد الأبوية..." ثم يقولون: "جاء في جوانب الأخبار: "إن فرنسا لا تقبل بكل اتفاق مبني على إعادة سوريا إلى سلطانها الشرعي". هل هذا ممكن؟ إن السوريين لا يمكنهم تصديقه ولا يخطر ببالهم صحته إذ أن الأمة الفرنسوية المشهورة بنبالتها وشهامتها وتمدنها تلك الأمة التي نحبها ونجلها لا يمكنها أن تريد بقاءنا محنيِّي الرقاب تحت نير استبداد عمدي وهو الصفة المميزة للحكومة المصرية عن سائر الحكومات. فنطلب أن يسمح لنا بالعودة إلى ملاذ حماية سلطاننا الشرعي الذي لم ننقطع عن الخضوع له منذ أربعماية سنة وجل رغبتنا الاشتراك في النعم والحقوق الممنوحة في الخط الشريف الذي أصدره جلالة السلطان وأولاها جميع تبعته الصادقة دون استثناء ولا تمييز"[1].

- وفي رسالة بعث بها السير هـ. بولور (Bulwer) السفير البريطاني إلى وزير الخارجية البريطانية اللورد ج. رسل (Russell) من إستانبول مؤرخة 17 تموز 1860 يقول: "هناك رأي حول هذه القضية (يعني أحداث 1860) يقول بأن الأسباب التي جرّت المصائب والفواجع تعود إلى

(1) ص (13) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

الدسائس التي كان خديوي مصر يحوكها، وإلى الدسائس التي كان يدبرها الموارنة مع الموظفين الفرنسيين، وأيضًا دسائس الحكومة الروسية"[1].

- وفي معرض كلامه عن حال سكان الدامور وما حولها إبان الثورة على المصريين في العام 1840، يقول شارل جوانين: "ورأيت أن كلامي قد سبب تأثرًا وخوفًا عند معظمهم. ولكن أجوبتهم كانت تحمل على القنوط، فقد أراني بعضهم (في معلقة الدامور والشويفات) منازلهم نصف المحروقة، وديرهم المخرب، وقالوا لي إن نساءهم وبناتهم قد انتهكت حرماتهنَّ، وإن كهنتهم قد ذبحوا أمام الهياكل، وإن حقولهم قد أحرقت وأتلفت كلها، وأملاكهم قد نهبت. وكان الجميع يؤكدون أنهم مرهقون بضرائب تجبى منهم ظلمًا، سبع أو ثمان مرات في السنة، ومرهقون بتسخير وبتجنيد مستمرين، مما أودى بهم إلى أقصى البؤس، وإنهم لم يبقَ عندهم ما يعيشون به. ثم سألوني في ختام تلك الأخبار: كيف يستطيعون أن يرفضوا في هذا الصيف الصدقات التي سيجلبها، بلا ريب، لهم الإنكليز، كما فعلوا قبلا في كسروان، وكيف يرفضون أيضًا الأسلحة التي سيعطونهم إياها ليطردوا مسببي بؤسهم، فيعود هؤلاء المنكوبون إلى سالف عزهم، ويرجعون إلى

(1) ص (31) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

رعوية سيدهم الشرعي: السلطان (العثماني)"[1].

- ونعيد ما أشرنا إليه سابقًا من كلام الأمير حيدر أحمد الشهابي إذ قال: "وأما إبراهيم باشا [إبان حربه مع دروز جبل حوران] فكتب من جهات حلب إلى الأمير [بشير] أن يوجه حفيده الأمير مجيد قاسم بعسكر إلى جهات دمشق لصد دروز لبنان ووادي التيم عن إنجاد دروز حوران والمحافظة على الطرق. وأن يوجه حفيده الأمير محمود خليل إلى حاصبيا لإرهاب الدروز اللبنانيين كي لا ينجدوا دروز الوعرة [اللجاه في جبل حوران]"[2].

وعن طمع محمد علي باشا فمنهم من قال بأنه كان يسعى إلى أن يُسندَ إليه السلطانُ محمود الثاني منصب الصدر الأعظم بدليل أنه لم يُعلن استقلاله عن السلطنة على الرغم من احتلاله لسوريا واستمرار هذا الاحتلال حوالي الثماني سنوات. ومنهم من قال: بل كان ينوي احتلال الآستانة كي يتسلم حكم السلطنة بكاملها. ومنهم من قال بأنه كان ينوي إقامة الدولة العربية وأنه كان أول من دعا إلى الوحدة العربية. وهذا ما جعله "يتحالف" مع الأمير بشير الثاني. فكان أن استغله أولاً لضرب آل طوقان حكام جبل نابلس. ثم التفريق بين

---

(1) من تقرير شارل جوانين (ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت) إلى مسيو دي ملواز، قنصل فرنسا في بيروت، مؤرخ في أول تشرين الأول 1840، تعريب، لور وإبراهيم يوسف يزبك، ص 521 وما يليها من المجلد الثالث، أوراق لبنانية، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

(2) ص (1302) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي لبنان في ظلِّ الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد، إشراف نظير عبود، طبعة 1993 – دار نظير عبود – ص. ب، 11/8086– بيروت – لبنان

اللبنانيين، لأنه كان على يقين بأن أمامه عقبتين لاحتلال سوريا هما: جبل نابلس وجبل لبنان.

2 – سياسة الأمير بشير الشهابي الثاني:

إن سياسة الأمير بشير، منذ العام 1822 وحتى عزله في العام 1840، في حكمه جبل لبنان، لم تكن في الواقع تنفصل عن سياسة محمد علي باشا. ففي العام 1821 جرى صدام بين عبد الله باشا، والي صيدا، ودرويش باشا، والي دمشق. وقف الأمير بشير الثاني بجانب عبد الله باشا، فتدخل الباب العالي ونقل عبد الله باشا وكلف درويش باشا بولاية صيدا، فاضطر الأمير بشير إلى الهرب إلى مصر، فتدخل واليها محمد علي باشا لدى الباب العالي، فأُعيد عبد الله باشا إلى صيدا والأمير بشير إلى إمارته. وهكذا أصبح هذا الأخير حليفًا لمحمد علي باشا. وهذه بعض الوقائع والشواهد على سياسة الأمير بشير تجاه رعيته:

- "ولما استوضح الباشا من الأمير أحوال لبنان، "تيقن أن معظم قوة الجبل بيد الدروز وأنهم الحاجزُ الحصينُ دون فوزه ونفوذه فيما إذا قصد الجبل غازيًا. ثم تنفس الأمير بشيرٌ الصعداء شاكيًا لزميله فرط ما يُعانيه من الهمِّ والغمِّ من تلك الطائفة وعشائرها الصعبة المراس. فهوّنَ محمد علي ذلك الأمر عليه قائلاً له: إلقِ بينهم بذور الشقاق متظاهرًا بمحبة هؤلاء مرة وأولئك مرة، مُغريًا كلاً من الفئتين بالأخرى، فيستوي بذلك بعضهم لبعض عدوًا، وتكثر بينهم الخصومات والمنازعات التي تورثهم الضعف، وتضطرهم إلى

الخضوع التام لك، فيتسنى لك إذ ذاك الانتقام والإيقاع بمن تُضمر له منهم الشرَّ متدرجًا في ذلك من المهم إلى الأهم..."[1].

- وعن قوة الموحدين الدروز يقول يوسف خطار أبو شقرا: "إن الدروز بأيديهم كانت معظم قوة الجبل وعلى ملكهم كانت جارية أكثر أراضيه وضياعِه ودساكرِه وقد كان في الإمارة اللبنانية على عهد الشيخ بشير جنبلاط أربعون ألف محارب من الدروز منهم عشرة آلاف خيّالة"[2].
- ولا بأسَ من إعادة ما أوردناه سابقًا عن الفرمان السلطاني بتاريخ 3 أيلول من العام 1840 القاضي بتعيين الأمير بشير الثالث والذي ورد فيه: "نعينه منذ الآن أميرًا لجبل الدروز"، و"عُينتَ أميرًا للدروز" و"إننا عيّنا الأمير بشير قاسم أميرًا للدروز"[3].
- وبعد عودته من مصر أخذ الأمير بشيرٌ ينفذ وصية محمد علي باشا وراح يفتك أولاً بالعائلات الإقطاعية الدرزية اليزبكية الغرض بادئًا بآل نكد ثم آل عماد مستغلاً صداقة رأس الجنبلاطيين، الشيخ بشير [جنبلاط]، ونفور هذا الأخير

(1) ص (5) من كتاب: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، يوسف خطار أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

(2) ص (25) من كتاب: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، يوسف خطار أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

(3) ص (21 و22) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، تعريب فيليب وفريد الخازن، الطبعة الثانية، الحازمية – لبنان 1983. وكانت الطبعة الأولى في العام 1910.

من هاتين العائلتين لامتناعهما عن أداء الجبايات مما يصيبهما من واردات الإمارة والتي كان للشيخ بشير نصيبٌ منها. ثم أعلن تنصره [أي الأمير بشير الثاني] وأقنع أقرباءه من الأمراء الشهابيين فحذوا حذوه وتلاهم أيضًا آل أبـــي اللمع[1].

- وإثر شكوى ابني الأمير يوسف الشهابـــي بوجه عمهـــم الأمير بشير والعرائض التي نظماها بحقه "رامينه بخيانة الدولة والوطن بتحالفه مع محمد علي باشا... صدر الأمر السامي للشيخ بشير جنبلاط بوجوب إلقائه القبض على الأمير بشير وتسليمه لمأموري الدولة العلية". ولكن الشيخ بشيرًا، مراعاةً للصداقة أبلغَ الأمير بشيرًا بالأمر، فترك [هذا الأخير] كرسي الإمارة وتوجه لتوه لاجئًا إلى حليفه محمد علي باشا، الذي أقنع الآستانة بأن التهم الموجهة للأمـــير وشـــاياتٌ باطلـــة فاستحصل له نعمة الرضى السلطاني عنه. فعاد الأمـــير إلى لبنان مستأنفًا مسيرته في كسر شوكة الموحـــدين الـــدروز وانقلب على صديقه الشيخ بشير و لم يزل حتى تخلص منـــه بأن شنقه عبد الله باشا، والي عكا، بأمر من محمد علي باشا، كما ذكرنا سابقًا. كذلك "أخذ في تشييد قوة الإكلـــيروس من الطائفتين ثم جعل يسعى في بذر حبوب الشقاق بـــين الطوائف المحمدية والمسيحية فيتداخل بها الإكليروس فتورث مداخلاتهم ضغائن وعوامل عدوانية في القلوب إذ كان الأمير يُعزِّزُ جانب الفئة المسيحية منهما وهو مع ذلـــك جـــادٌ في

(1) ص (8) من كتاب: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، يوسف خطار أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

توطيد دعائم النصرانية في البلاد ونجاح مساعيهم وبسطةِ أيديهم ونفوذ كلمتهم مع إخماد نار الدروز ودرس آثار عزِّهم وسؤددهم وغناهم. فنمت بين الطائفتين بذور الحسد وتأصلت في أفئدتهم جذور البغض والمشاحنة..."[1].

- ويروي رستم باز في مذكراته ما قاله حاكم جزيرة مالطا عن الأمير بشير الثاني: "كنت أظن الأمير بشير رجلاً عاقلاً فتأملت صورته وجدته رجلاً وحشًا! حكم خمسًا وخمسين سنة و لم يقدر [أن] يجعل الحكم خلافة لمن بعده من نسله مثل محمد علي باشا؟! والذي يثبت قولي هذا: لم أجد ولا واحد من أكابر البلاد وأعيانها مرافقه، غير هؤلاء الأولاد الذين تراهم يلعبون بالكرة!"[2].
- ويتابع رستم باز قائلاً: "... فاستحسنت الدولة إرسال خليل باشا قبطان البحر للنظر بأحوال لبنان... قبل سفر خليل باشا إلى بيروت حضر عند الأمير بشير وهو في سِماطيا.. وقال: "- يا أمير، أنا متوجه إلى لبنان للنظر بأحواله. وأخبروني أنك حكمتَ على لبنان خمسًا وخمسين سنة أفلا تخبرني عن سكانه؟ ما هي أخلاقهم وطبايعهم وما هي الواسطة التي مكنتك من الحكم كل هذه (المدة)؟ "أجابه المير بشير: أفندم، سبق وحكمت هذه المدة. ولكن

(1) ص (26) من كتاب: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، يوسف خطار أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 1952.

(2) ص (111) من: مذكرات رستم باز، مجلة أوراق لبنانية، الجزء الأول، المجلد الأول سنة 1955.

كل ثلاث سنين أو أربع أو أكثر، (كان اللبنانيون) يعملون ثورة و لم ينجحوا بواحدة. وكنت أقتل وأشنق وأحبس وأضرب بلا معارض حتى يذلوا... أما طباعهم، فيكفي مثل أعرضه لدولتك: أفندم، يوجد في لبنان وغيره طير يسمى أبو فار (يصطادها) (؟)، وهو أكبر من طير الباز. فهذا (أبو فار) يجلس على شجرة عالية، فلما تشرق الشمس ينظر خياله فيجده كبيرًا عن الحقيقة، فيقول: اليوم لازم اصطاد جملا. وكلما علت الشمس صغر (أبو فار) فينتقل من (اصطياد) جمل إلى أصغر، حتى تصير الشمس في قبة الفلك وتكبسه من فوق رأسه، فينظر إلى خياله يجده أصغر من الحقيقة فيرجع إلى صيد الفار"[1].

- ومن جوره وبطشه أنه قتل أخاه الأمير حسن بأن دسَّ له السُمَّ في القهوة، مُدعيًا بأنه "رجلٌ شريرٌ منافق رديء لا يخاف الله" وخوفًا من أن يغدر به، على حد قوله[2].
- أما الأمير شكيب أرسلان فيقول في كتاب "البيان"[3]: "... وكان [الأمير بشير الشهابي] إذا رأى بيتًا من البيوت الإقطاعية ازداد كثيرًا في حوله وطوله، اجتهد في خضد شوكته، وأغرى به بيوتًا أخر، إما من أقارب ذلك البيت،

(1) ص (453) من: مذكرات رستم باز، مجلة أوراق لبنانية، المجلد الأول، الجزء (10)، تشرين الأول 1955.

(2) مذكرات رستم باز، ص (190) من كتاب: باقة بنفسج، جورج سليم عبد الأحد، الطبعة الأولى، دار نلسن، بيروت 2016.

(3) ص (394) من: مجلة أوراق لبنانية، الجزء الأول، المجلد الأول سنة 1955.

أو من عائلات أخرى. كما فعل بالنكدية الذين ألّب عليهم آل جنبلاط وآل عماد، فغدروا بهم في مجلسه في دير القمر، وقتلوا منهم خمسة ثم قبضوا على أربعة آخرين وقتلوهم، و لم يبقَ منهم سوى الأولاد الصغار. وكان يريد أن يتولى المشايخ أنفسهم قتل بعضهم بعضًا حتى يقع الدم بين العائلات الإقطاعية وتستمر بينهم العداوة. وهكذا قضى الأربع والخمسين سنة من ولايته في التضريب بين فريق وفريق، يومًا يؤلب آل جنبلاط وآل عماد على آل نكد. ويومًا يؤلب آل تلحوق وآل عبد الملك على العمادية... وبهذه الوسيلة استتب له الأمر هذا الزمن الطويل، وكان في الوقت نفسه يقوي الأهالي في وجه المشايخ، ويمنح بعضهم إقطاعات كما اقتطع لبني حماده من بعقلين ناحية إقليم الخروب وخاطبهم "بالأخ العزيز"، اللقب الذي كان يومئذٍ علامة المشيخة. وكان أيضًا لا يقتصر في توهين قوة المشايخ على الإغراء فيما بينهم، وعلى تقوية العامة في وجههم، بل كان إذا أحس بأن بيتًا من بيوتاتهم نمت ثروته نموًا زائدًا واستكثر من اقتناء الأملاك والعقارات، تقاضاه تأدية شيء من المال ما دام يعلمه موسرًا ذا فضلة".

- ويتابع الأمير شكيب قائلاً: "فلم يسلم بيت من بيوت الأكابر في جبل لبنان من تغريم الأمير بشير، وبدلاً عن المرة مرات"[1].

(1) ص (396) من: مجلة أوراق لبنانية، الجزء الأول، المجلد الأول سنة 1955.

- أما الأمير حيدر أحمد الشهابـــي، وهو من معاصري الأمير بشير المذكور، فيقول في الصفحة (1093) من كتابه (تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي): "إن ولاية الأمير بشير المذكور لم تستمر زمنًا طويلاً، لأنه تولى مدة ثم خلع، وتولاها الأمير يوسف، ثم رجع إلى الولاية الأمير حيدر والأمير قعدان. ثم أرجع بشير للولاية، ثم أولاد الأمير يوســـف، و لم يســـتقلّ بالولاية حتى أباد جميع أعدائه ومقاوميه"[1].
- ويضيف في ص (1273): [عن الثورة ضد الأمـــير بشـــير المعروفة بحركة المختارة] "وأشاع بعضُ ذوي الغايـــات أن القصد بثورة المختارة هو لتسلط الدروز علـــى النصـــارى. وكان ذلك لينفروا الناس من الذهاب إلى المختارة فـــذاعت هذه الكلمة في البلاد".
- ويتابع في ص 1279: "ولما وصل الأمراء [الذين شاركوا في حركة المختارة] إلى بيت الدين أمر الأمير [بشير] بسجنهم. ثم أمر بسمل عيونهم وقطع رؤوس ألسنتهم ورجـــوعهم إلى منازلهم".
- ويكمل في ص 1305: "وفي السنة 1253هـــ - 1837م. قدم إلى بتدين كلوط بك الفرنساوي رئيس الأطباء في الـــديار المصرية فخاطبه الأمير أن يلتمس له إذنًا من العزيز ليرسل له من بلاده تلاميذ ليتعلموا الطب هناك فأرسل له أمرًا مـــن

(1) ص (1093) من: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابـــي لبنان في ظلِّ الإمارة الشهابية، علق على حواشيه الدكتور مارون رعد إشراف نظير عبود، طبعة 1993 - دار نظير عبود - ص. ب، 11/8086- بيروت - لبنان.

العزيز بقبول التماسه. فأرسل الأمير ثلاثة من الموارنة ومملوكه سليمًا (هو سليم أفندي المملوك الذي صرف آخر حياته في قرية عين زحلتا وتوفي فيها) فتعلموا علم الطبيعة والطب بكامل فروعه ونبغوا فيه". وهذا دليلٌ آخر على تمييزه الموارنة عن الدروز.

- ويقول شارل جوانين: "يجب أن تُقال الحقيقة كاملة، ولا أخشى أن يكون فيها هنا شيء من المبالغة. فطغيان الأمير بشير [الثاني] واستعباده الذي يفوق كلَّ تعبير، (وبالرغم من كون هذا الطغيان هو طغيان الأمير نفسه فإنه ينسب إلى محمد علي، وتقع تبعاته عليه، مما أتيح لك أن تقدره بنفسك يا حضرة القنصل من أعمال جرت مؤخرًا) – قلت: إن طغيان الأمير، والبؤس البالغ الناجم عن هذا الطغيان، قد قضيا على بقية الأمل في صدور هؤلاء التعساء، وأعميا هم حتى أنسياهم ماضيهم كلّه"[1].
- أما أسد رستم فيقول عنه: "وإن الأمير بشيرًا كان كثير التواضع[2] في كتاباته إلى محمد علي فكان إذا كتب إليه، بدأ كتابه بقوله: غب لثم راحاتكم، أو غب لثم أذيالكم، وقد زاد في تواضعه مرةً فقال: غب لثم التراب... وكان في سياسة رعيته يلبس لكل حالة لبوسها؛ فكان سنيًّا مع

(1) من تقرير شارل جوانين (ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت) إلى مسيو دي ملواز، قنصل فرنسا في بيروت، مؤرخ في أول تشرين الأول 1840، تعريب، لور وإبراهيم يوسف يزبك، ص 520 وما يليها من المجلد الثالث، أوراق لبنانية، طبعة 1983، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان.

(2) تَوَاضع يَتوَاضعُ تَوَاضُعًا: الشخص: تخاشَعَ وتَذلَّل وعكسها تكبَّر.

السنيّين، نصرانيًا مع النصارى، درزيًا مع الدروز"[1].

- وفي كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام": "واشتدّ الكره بين الطائفتين [الموارنة والدروز] لسبب آخر علتهُ التعصب الديني أيضًا ذلك أن الموارنة اكتسبوا في أيام الأمير بشير [الثاني] الكبير نفوذًا عظيمًا حتى أنهم داسوا حقوق الروم والبروتستانت وغيرهم من الطوائف الأخرى التي لم توافقهم على مذهبهم. ولما علم بطريركهم أن الإنكليز قادمون مع جيوش الأتراك في سنة 1840 إلى بلاد الشام أسرع إلى تلبية قنصل فرانسا فأعلن أن الإنكليز أكفر الكافرين وحرم كل واحدٍ يختلط بهم أقلّ اختلاط وقال بإطفاء عيني كل نصراني يرى بعينيه مراكبهم"[2].

وباختصار يمكن القول بأن الأمير بشيرا اتبع، إلى جانب البطش والجور والظلم، سياسة "فرّق تسُدْ". أما عن علاقته بمحمد علي فلم تكن تحالفًا بقدر ما كانت تبعية، فقد كان محمد علي يصدر الأوامر والأمير ينفذ، ويؤكد رأينا هذا قول أسد رستم المدرج آنفًا. وبالتالي يمكننا القول بأن سياسته كانت نابعة من تعليمات محمد علي باشا.

---

(1) ص (714) من كتاب: "أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا"، تحقيق أسامة كامل أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.

(2) ص (79–80) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

3 – الإرساليات الأجنبية والإكليروس والمدارس الدينية:

لقد كان لهذه الجهات دورٌ لا يُستهان به إن في غسيل الأدمغة أو في تجييش القلوب وملئها بالكره ليصبح أبناء البلد الواحد أعداءً. ونورد فيما يلي بعض الشواهد على ذلك:

- يقول Ristelhuber. René: "ثم عقب ذلك وصول المرسلين الفرنسيين الذين راحوا يؤسسون مدارسهم ورهبانياتهم وكان أول الوافدين منهم الفرنسيسكان (الذين جاؤوا عند مقدم القديس فرنسيس الأسيزي إلى فلسطين سنة 1220 ثم اليسوعيون سنة 1578 والكبوشيون سنة 1625 والعازريون سنة 1783)، أصبح لبنان المرتكز الرئيسي لنشاط الإرساليات التبشيرية الفرنسية في الإمبراطورية العثمانية... وإلى مرسلينا يعود بعض الفضل العظيم في إحاطة بلادنا بهذه الهالة الممتازة"[1].
- وفي تاريخ العرب: "نتج عن نشاط الإرساليات المسيحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانت أكثرها يسوعية وعازارية، أن تأسست كنائس كاثوليكية تابعة للبابا بعضها سريانية كاثوليكية وتستعمل اللغة السريانية في طقوسها الدينية وبعضها روم كاثوليك وتستعمل اليونانية. وكان عهد الأمير فخر الدين المعني اللبناني الثاني (1590 – 1635)

(1) (Ristelhuber, René, Les Traditions Françaises au Liban, p. 102). ص (33) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

عهد تقدم وحرية ونور وقد فتح الباب علـــى مصـــراعيه لتأثيرات الثقافة الغربية"[1].

- وفي العام 1843 كتب المشايخ الخازنيون عريضة إلى الحبر الأعظم في رومة، يطلبون منه فيها أن يمنع الإكلـــيروس الماروني من التدخل في "أمور الأحكام السياسية"[2].
- **أما جرجي الحداد** فيقول: "فأصل البلاء والاختلافات بين المذاهب وإضرام نار البغضاء بين أبناء الـــوطن الواحـــد ووقوع هذه المذابح والمجازر هم دون شـــك المبشـــرون المسيحيون أولا والمستعمرون الأوروبيون والسياســـيّون منهم ثانيًا. لأن هذا أمرٌ معروفٌ عند دول الاســـتعمار وهو أن التجارة تتبع المبشِّر أولاً ثم الراية والقوة العسكرية تتبع الاثنين".
- ويتابع: "وذلك أن أول من دخل من هؤلاء المبشـــرين إلى سوريا هم الإنكليز والأميركيون. فهال فرنسا هـــذا لأنهـــا وجدت أن النفوذ الإنكليزي سيحل عوضًا عن نفوذهـــا في تلك البلاد. فعلى من تعتمد والحالة هذه على مقاومة ذلك النفوذ سوى على رجال الدين... فأوعزت إلى الجزويت أن يذهبوا إلى تلك البلاد وأمدتهم هـــم والعـــازاريون بالمـــال والنفوذ فجاؤوا سوريا الحزينة وأخذوا بإنشـــاء المـــدارس والكنائس ومقاومة الإنكليز والأميركيين والمسلمين أيضًـــا

(1) ص (826) من: تاريخ العرب، حتي وجرجي وجبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

(2) ص (288) من: ج. حزيران 1957، أوراق لبنانية، المجلد الثالث 1957.

بالطعن والتهويل وأذاعوا في طول البلاد وعرضها وخصوصًا بين الطائفة المارونية في جبل لبنان أن فرنسا حاميتهم فلا يخشون من أحدٍ شرًا وأنه إذا خطر للدولة العثمانية أو الدروز أو المسلمين أن يحركوا ساكنًا ضدهم فعليهم بضربهم وإفنائهم حتى لا تقوم لهم قائمة وأن بوارج فرنسا وجنودها تكون عندهم بعد أربعٍ وعشرين ساعة تمطر المسلمين والدروز نارًا محرقة. ولكي يزيدوا هذا تأكيدًا ويزيدوا نار العداء والتفريق بين المسيحيين والمسلمين وغيرهم سعيرًا تكون عاقبتها مذبحة تحتل فرنسا البلاد عقبها[1].

- ولنقرأ ما جاء في كتاب **حسر اللثام عن نكبات الشام**[2]: ففي (ص 54 منه) يقول: "وأما النصارى فأسكرهم جرأة البطريرك ومساعدة الأمير بشير (أبو طحين) لهم و لم ينظروا في الغيوم التي كانت تتلبد فوق رؤوسهم. ويا ليتهم اقتصروا على معاندة الدروز واكتفوا بذلك ولكنهم حاولوا قتل كل من لم يكن على معتقدهم فأغروا الأمير بشيرًا [الثالث] على

(1) ص (51 و52) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931.

(2) كتاب مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

قفل مدارس الإنكليز والأميركان في الجبل ومع أن نعمان بك جنبلاط سار إلى بطريركهم ورجاه أن يساعده على إبقاء هذه المدارس لنفع الأولاد من الطائفتين فلم يقبل بغير ما رآه، وكان يومئذٍ مطران بيروت الماروني (طوبيا عون) عند البطريرك فقال لنعمان بك إنه سوف يبطش بكل درزي ويخضع كل هرطوقي عن قريب لإرادته. فعاد نعمان بك وهو من أشرف أشراف الدروز وقص الحكاية على أعوانه وذويه فامتلأت الصدور غيظًا وحنقًا ولم يعد في إمكان الدروز الصبر..." وكأن البطريرك آلَ على نفسه أن يكون السبب في الحرب وسفك الدماء فأصرّ في تلك السنة على عدم دفع الأموال الأميرية عن الموارنة حسب العادة وهو يعلم أن غاية الأتراك من حكم البلاد جمع أموالها..." وفي (ص 100 منه): "وهدأ روع البلاد وبطلت الحرب [المقصود الحركة الأولى 1841] التي كانت علتها طمع بطريرك الموارنة في مد نفوذه وتعصبه على كل من خالف مذهبه..." وفي (ص 118 منه): "وجاءت في تلك الأثناء [يقصد ما قبل الحركة الثانية 1845] أموال وافرة إلى بطريرك الموارنة إعانة للذين نكبوا في الحرب الأخيرة [1841]، فبدل أن يعطيها هذا الرئيس إلى الذين نُهبت أموالهم وقُتلت رجالهم وزعها على قسسه وعماله ليستعملوها آلة لإضرام نار الحرب الثانية وأمرهم أن يدفعوا لكل محارب ينضم إليهم أربعة غروش في النهار، ففعلوا ذلك واجتمع لديهم خلق كثير. ثم أتى الإكليروس الماروني كل حيلة لإقناع الناس أن

تلك الحرب دينية وأنه يجب على كل نصراني أن يقوم لمحاربة الدروز والمساعدة على اقتلاع آثارهم وطردهم من جبل لبنان. ويا ليتهم تعاونوا مع حلفائهم القدماء [الدروز] على مقاتلة الذين حرضوهم على هذه الأمور وزرعوا بزور العدوان بينهم وطرد الأتراك من تلك البلاد التي ملأوها ظلمًا وفسادًا". وفي (ص 130 من الكتاب عينه): "ومات بطريرك الموارنة أيضًا في تلك المدة فعقبه آخر لم يعرف آخرة التهور مثل الذي سبقه فأعاد الكرة على الدروز وشدد على أعوانه بمقاومتهم ومضادتهم وأهاج في صدور قومه حب الحرب واستئصال شأفة الدروز لأنهم كانوا أعداء دينهم. واضطهد كل نصرانيٍّ من غير طائفته حتى أنه ساعد قومه على اغتصاب كنائس الأورثوذكس وتدمير مدارس البروتستانت".

وهنا يطرح السؤال نفسه: لقد قامت الثورة الفرنسية، ليس في وجه الملكية فقط، بل أيضًا في وجه الإكليروس. فتحولت فرنسا من دولة كاثوليكية إلى دولة عَلمانية تحارب هؤلاء على أرضها، فلماذا إذًا تساعدهم في الشرق؟

- ويقول زين نور الدين زين: "وفي أثناء الثورة الفرنسية، وعلى الرغم من السياسة المعادية للإكليروس وللكثلكة التي كانت "لجنة الأمن العام" "وحكومة المديرين" تتبعانها في فرنسا ذاتها، فإن إعادة نفوذ فرنسا وهيبتها في الخارج اقتضت أن تحافظ على المغانم التي كانت تنطوي عليها الامتيازات الممنوحة لها في المشرق. وكان على فرنسا أن

تستمر في سياسة "حماية الـــدين". وفي عهـــد "حكومـــة المديرين" كتب دي لا كروا (De La Croix) وزير الخارجية إلى السفير الفرنسي في إستانبول، الجنرال أوبـــير – ديبايـــه (Auber-Dubayet) يقول: "إن حرصك وغيرتـــك علـــى حماية الدين يستحقان كل تقدير، وهذا العمل على كثير من الخطورة في هذا الظرف. نطلب إليك العمل علـــى بســـط نفوذنا، إذا كنا قد فقدنا شيئًا من هذا النفوذ، سواء أكـــان ذلك في العاصمة أو في الجزر أم في آسيا"[1].

أما عن دور المدارس فنكتفي بالتالي: في عام 1863م اقترح المنصِّر هاملين على صديقه روتشيلد اليهودي إنشاء مدرسة ثانويـــة بجـــوار "قلعة الروملي" قائلاً: "لقد أنشأ الأتراك حصنًا لفتح إسطنبول، وأنـــا سأنشئ هنا مدرسة لهدمهم"[2].

4 – سياسة فرنسا:

إلى جانب بريطانيا ومحمد علي فقد كان لفرنسا دورٌ كبير في زرع الحقد والبغضاء في نفوس بعض أبناء الجبل ضد بعضهم الآخر في سبيل تحقيق مآربها ومصالحها سواء تجـــاه بريطانيـــا، عـــدوتها التقليدية، أم لتتمكن من التدخل في شؤون السلطنة العثمانيـــة في سبيل تحقيق حلمها في احتلال سوريا ثم ردًّا على موقف البـــاب

(1) Ristelhuber, René, Les Traditions Françaises au Liban, p. 288. ص (33) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولـــتي لبنان وسوريا، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/58cfcd96-6d5c-4e86-a6d1-8853176f9da9

العالي من أعمال حفر قناة السويس. وفيما يلي بعض ما يبين انعكاس سياستها على أبناء وأحوال جبل لبنان:

- نعود إلى ما جاء في رسالة السير هـ. بولور (Bulwer) السفير البريطاني إلى وزير الخارجية البريطانية اللورد ج. رسل (Russell) من إستانبول مؤرخة 17 تموز 1860 يقول: "هناك رأي حول هذه القضية [يقصد أحداث 1860] يقول بأن الأسباب التي جرت المصائب والفواجع تعود إلى الدسائس التي كان خديوي مصر يحوكها، وإلى الدسائس التي كان يدبرها الموارنة مع الموظفين الفرنسيين، وأيضًا دسائس الحكومة الروسية"[1].
- كذلك ما قاله كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام"[2]: "وكان قناصل فرانسا لسوء الحظ يكثرون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الأتراك بعد تلك الحرب [حرب القرم 1854–1856] ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركية في كل أمرٍ حتى أن قنصلهم في بيروت كان يحتم على المسلمين بالوقوف له كما يقفون للوالي عند مرور عربته بهم فإذا لم يقفوا له نزل من العربة

(1) ص (31) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (128) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983 والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

وجعل يجلدهم بسوطه جلدًا ويشتم أعز الأمور عندهم ويكثر من احتقارهم. وكان الموارنة أعوانًا لقناصل الفرنسيس يعاونونهم على مد نفوذهم ويجاهرون بالانتماء إلى الدولة الفرنساوية..." "وصار المسيو ده لسبس قنصل فرانسا وقتئذٍ في بيروت يستدعي أكابر المسلمين والدروز والنصارى إلى بيته فيأمر فيهم وينهى... ولطالما ألقى أناسًا في السجن وأفرج عن أناس ونقل الأرزاق من رجلٍ إلى خصمه وحمى أصغر الخادمين في بيته من الحكام ولو أنه ارتكب أعظم الجرائم... وفي هذا الحين [إبان حكم الأمير بشير الثالث] بدأت الدسائس الدولية تهيئ البلاد للثورة والحرب. فبينما كان الأتراك يهيجون الدروز على النصارى والنصارى على الدروز قصد الانتقام من الطائفتين وصيرورة الجبل إلى قبضتهم رأت الدولة الإفرنسية أن آمالها خابت في بلاد الشام مرتين على يد الإنكليز فمرة طردت عساكرها منها على عهد نابوليون بونابارت ومرة عاد إبرهيم باشا عنها وكانت هي العضد الوحيد له بين دول أوروبا ولهذا رأت أن تعمل على تقوية حزبها وزيادة نفوذها توصلاً إلى امتلاك البلاد بقوة هذا الحزب ومساعدته في أحد الأيام. ولما كان الموارنة ينتمون إليها وهم تحت حمايتها كما تقدم صار قناصل فرانسا يروحون ويجيئون إلى دار البطريرك الماروني ويخابرونه في ما يريدون وأرسلت إليه الدولة الإفرنسية في ذلك الحين نصف مليون فرنك لينفقه في سبيل غاياته وغاياتها. وكان إرسال هذا المال على طريقة علنية فجعل

الموارنة يفتخرون بالأمر ويتباهون بمساعدة فرانسا لهم ويقولون إنهم سوف يسحقون الدروز سحقًا وينزعون كل سلطة من أيديهم. وكان الأمراء الشهابيون قد صاروا تحت سلطة البطريرك وأعوانه وبدأوا بمساعدته على ما كان ينوي من مدٍّ نفوذه ونفوذ فرانسا ولكنهم لم يعلموا بالدسائس الإفرنسية إلاّ بعد حين. وأصدر بطريرك الموارنة في ذلك الحين منشورًا إلى أهل طائفته شدد عزائمهم فيه على المجاهرة بالعدوان إذ أمرهم بانتخاب اثنين من كل قرية يكونان مسئولين لدى الحكومة عن أعمالها ويقضيان في كل مسائلها"[1].

- ويقول جرجي الحداد: "ذلك أن العازاريين الفرنسويين علقوا في قبة كنيستهم بقرب السور في بيروت جرسا كبيرًا كانوا يقرعونه قرعًا شديدًا متواصلا كلما صعد المؤذن المسلم المسكين إلى المئذنة لكي يؤذن وهذا لكي يشوشوا عليه أذانه الذي يوحد الله به فتضايق المسلمون وحقهم أن يتضايقوا من هذه الوقاحة المقصودة وقلة الأدب والتعدّي عليهم لأن وقت قرع الجرس لم يكن وقت الصلاة فتظلموا ولما لم يُجدهم تظلمهم شيئًا عمدوا إلى إيقاف القرع بالقوة وتهددوا الدير بإحراقه فبعث العازاريون يشتكون إلى سفير

(1) ص (74–75) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

فرنسا في الآستانة وهذا بدوره احتج لدى السلطان والباب العالي، وطلب ترضية عن هذه الإهانة أن يعلق في قبة الكنيسة جرسان وليس جرس واحد. وهكذا صار فصاروا يقرعون الجرسين أولاً نكاية بالمسلمين وثانيًا لإفهام المسيحيين ما لفرنسا من القوة وأنهم يقدرون أن يتكلموا عليها فشاع هذا العمل وذاع في عرض البلاد وطولها وخصوصًا بين موارنة جبل لبنان الذين لم يكتفوا بتحريشهم على الدروز فقط بل على بقية الطوائف المسيحية أيضًا حتى أنّ البطريرك الماروني من كثرة ما حشت فرنسا وعمالها الجزويت برأسه من العنفوان عزم على إبادة كل طائفة وعنصر غير ماروني في لبنان"[1].

ويضيف: "فقد أقروا [قصد الموارنة] هنا إقرارًا صريحًا أن فرنسا أرسلت إليهم [إبان أحداث 1860] نصف مليون فرنك أنفقها البطريرك الماروني في سبيل غاياته وغاياتها... ولكن في مصدرٍ آخر يقولون إنه قد أرسل مع هذا المال كثيراً من براميل البارود والسلاح الفرنسوي فكان البعض منه يوزعه قنصل فرنسا في بيروت المسيو دي لسبس... والبعض الآخر يرسل سرًّا وليلاً إلى الشواطئ السورية بين بيروت وطرابلس بمراكب فرنسوية حيث يستلمه قومٌ يبعث

(1) ص (53) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931.

بهم البطريرك فيوزعونه في أنحاء الجبل..."[1].

ويتابع: "فنابوليون الثالث وقد أبت إنكلترا أن تشاركه يومئذٍ بفتح شمالي أفريقيا كله إذ يعطها مصر... حول وجهه نحو سوريا فلم يجد من بابٍ للدخول إليها سوى باب الجزويت المبشرين والتظاهر بحماية المارونيين ولو ذُبحوا عن بكرة أبيهم أجمعين"[2]. ثم يورد الأمثلة التالية عن تخلي فرنسا عن الموارنة وقت الشدة والتضحية بهم واستعمالهم "كحطب المحرقة" في سبيل تحقيق غاياتها الاستعمارية:

"ترك قنصل فرنسا في بدء الحرب [العالمية الأولى] لما غادر بيروت أوراق ومكاتيب السوريين إليه وإلى دولته في القنصلية الفرنسوية أو الأميركية قصدًا منه لكي تقع بأيدي الأتراك فيعدمون أصحابها وهذا توسيعًا لشقة الخلاف بين الدولة ورعاياها وهكذا كان فشنق جمال باشا ذلك العدد العديد منهم كما هو معلوم و لم تكتفِ "الأم الحنون" بذلك بل عمدت إلى قتل المارونيين كلهم في جبل لبنان جوعًا

(1) ص (59) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931.

(2) ص (66) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931.

وتلويعًا إذ منعت وصول القوت إليهم الذي أرسل وسيرسل غيره من أميركا وتهددت الباخرة الحاملة لهذه الأقوات والإعانة بالغرق إذا دنت من الشواطئ السورية فظلت الباخرة في الإسكندرية رغمًا عن توسط البابا وملك إسبانيا وإمبراطور النمسا..."[1].

"وها حوادث سنة 1919 وهي بداية سنة الاحتلال والتقسيم المشؤوم تشهد كيف أن الجنرال غورو ضحى بمسيحيي مرجعيون إذ حرّش عليهم المسلمين [يقصد السنة] والمتاولة [الشيعة] وأعطى محمود بك الفاعور على ما يقولون 45 ألف ليرة إنكليزية لكي يقوم بذبحهم وهذا لكي يقولون [يقولوا] للرئيس ولسن إن النصارى بدون حماية فرنسا لهم هالكون لا محالة وقد أخبرنا مواطنٌ من تلك البلاد وهو رجل فاضل وممن يوثق بكلامهم أن الفرنسويين استأجروا رجلاً نذلاً من دير القمر وزودوه بتعليمات مآلها أنه والذين يقدر أن يجمعهم حوله من الرجال كلما قتلوا درزيًا أو متواليًا يأخذون عن كل قتيل ليرة إنكليزية وبذات الوقت استأجروا رجالاً من المسلمين والدروز وطلبوا منهم ذات الطلب وهو أنهم كلما قتلوا رجلاً مسيحيًا يعطونهم على قتله ليرة إنكليزية أيضًا فلما كثر عدد القتلى من

(1) ص (66) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931.

الجانبين أبى الفرنسيس أن يعطوهم مالاً بل سلاحًا وذخيرة تعادل القيمة وزاد على ذلك مخبرنا بقوله إنهم لما هجموا أي المتاولة على مرجعيون أنهم [أي أهل مرجعيون] أبرقوا إلى الجنرال غورو في بيروت يستنجدونه فما كان من مجيب وغاية ما هناك أنه بعد يومين أرسل طيارتين طارتا فوق تلك الربوع الملتهبة بالحريق والقتل وعادتا إلى بيروت، وكان الفرنسويون معسكرين بالقرب من مرجعيون يتفرجون فاستغاث المسيحيون بالضابط الإفرنسي لكي ينجدهم فأبى قائلاً أن ليس لديه أوامر أن يتدخل فطلبوا منه على الأقل سلاحًا لكي يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم مع أن عندهم الكثير من السلاح الذي أبقته الحرب وما قولهم له هذا إلاّ لكي يمتحنوه ويمتحنوا محبة "الأم الحنون.." فأبى عليهم هذا أيضًا قائلاً إنه لا يدافع إلاّ عن الفرنسويين وليس عن السوريين الذين يمكنهم أن يذبحوا بعضهم بعضًا إلى ما شاء الله...

"أيضًا حادثة عين إبل التي أهلك بها المتاولة موارنة تلك القرية الواقعة في قضاء صور[1] فإن الضابط الفرنسوي في صور سلح أهل تلك القرية وشدد عزائمهم وأعطاهم راية إفرنسية وقال لهم إن فرنسا هنا فإذا نظروا إليكم فاشتموهم وإذا شتموكم فاضربوهم وإذا ضربوكم فاقتلوهم وإذا ما قدرتم عليهم فأرسلوا وأعلموني لكي آتي إلى نجدتكم.

(1) تتبع حاليًا قضاء بنت جبيل.

فذهب هؤلاء وما علموا أن الجنرال غورو وأعوانه الفرنسيس بعثوا بهم إلى الهلاك لكي يتسنى لهم تثبيت قدمهم في البلاد بواسطة دمهم وأعراضهم وأرواحهم فلما جاءوا قريتهم أخذوا حجرًا كبيرًا نصبوه في وسط الساحة ولفوا عليه عمامة خضراء وأخذوا يطلقون عليها الرصاص قائلين هذا رأس النبي محمد.. فهال هذا العمل مواطنوهم [مواطنيهم] المتاولة وأخذوا يعاتبونهم على هذا العمل بكلام لطيف أولاً مذكرينهم كيف أنهم عالوهم وعطفوا عليهم في أيام الحرب وكانوا يقاسمونهم اللقمة التي في أفواههم فلم يزدد أولئك البلهاء المخدوعين [المخدوعون] إلاّ عتوًا إذ قالوا لهم إن ما كلامكم هذا لنا الآن إلاّ على سبيل الضعف والخوف من فرنسا حينئذٍ طفح الكيل وفرغ صبر أولئك فبدأوا بذبحهم قائلين لهم لتأتي [لتأتِ] فرنسا وتخلصكم.. فلما رأوا هذا الويل بعثوا يطلبون النجدة "الفرنسوية" من صور فقال لهم الضابط المتقدم الذكر – إنني لا أقدر أن أتدخل لأن ليس لدي أوامر بهذه المداخلة فقالوا له ولكنك أنت قلت لنا إن فرنسا وراءنا وإنك مستعد لنجدتنا فأجاب بخشونة قائلاً – إنني لا أريد أن أعرف [أسمع] هذا الكلام فالسلاح الفرنسوي يدافع عن الفرنسويين فقط وليس عن السوريين ثم أدار ظهره وذهب فاعترضه الجاويش وديع عبود اللبناني المتحمس للبنان وفرنسا والذي ذهب من البرازيل يقود فرقة من المتطوعين لقتال الأتراك ونصرة فرنسا وقال له – إن هذا لا يمكن فأنا ذاهبٌ لنصرتهم لأنه لا

يمكنني أن أتركهم يهلكون فنهاه الضابط الإفرنسي المشار إليه عن الذهاب فأبى الإصغاء وذهب فبعث الضابط بجند السينيكال فقتلوه في الطريق وهذه حادثة معروفة وقد ذكرها كل الجرائد يومئذٍ وكان الاشمئزاز منها عظيمًا وبدأ الناس يدركون منذ ذلك اليوم وتلك الحوادث نوايا وأعمال "الأم الحنون". أما موارنة عين إبل فقد أبيدوا عن آخرهم والذي اعتصم بالكنيسة أحرق معها وهذا ما كان يريده غورو باشا الغازي الذي بعد نيل مأربه الاستعماري وتثبيت قدم دولته في سوريا الحزينة بعث واستدعى محمود بك الفاعور وعانقه وأنعم عليه بنيشان المعارف وعينه عضوًا شرفًا في الأكاديمي فرانسيز [L'Académie Française]. ولا تسل عن الضحك الذي حدث يومئذٍ من هذا التعيين وهذا النيشان وهذه المهازل المقرفة التي تتقزز منها النفس ولما عوتب الجنرال غورو من بعض وجوه المسيحيين على هذا العفو عن الرجل الذي لطخ يداه [يديه] بدم المسيحيين قال ما يأتي بالحرف – "إن فرنسا تعرف المذنب من البريء فكل واحدٍ عليه بالنظر إلى أشغاله الخاصة" ونظنُّ أن هذه أفضل وأصدق كلمة قالها هذا المستعمر لأنه هو وحده طبعًا يعرف المذنب من البريء"[1].

(1) ص (88 وما يليها) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931.

ولا بد أنك، أيها القارئ الكريم، قد لاحظت أن جزءًا لا بأس به من الشواهد التي وردت في هذه الفقرة يشهد أيضًا على دور الإكليروس، ولكننا لم ندرجه في الفقرة (3) السابقة، لعدم الإطالة بالتكرار.

5 – وجود السلاح بأيدي اللبنانيين:

منذ تأسيس الإمارة كان الدروز جيشها المقاتل وبالتالي كان كلٌّ منهم يحتفظ بسلاحه. ثم في أثناء ثورة دروز حوران على المصريين قام محمد علي بتوزيع السلاح على الموارنة كما مرّ معنا سابقًا. كذلك قام الإنكليز بتوزيع السلاح على الفلاحين اللبنانيين[1] لتعزيز ثورتهم على المصريين في العام 1840. وخصوا به الدروز بحجة حمايتهم لهم. كما لم تبخل فرنسا على الموارنة بالمال والأسلحة.

وفي تقريره إلى المسيو بوتينيف مندوب الروسية في الآستانة بتاريخ 11 حزيران سنة 1840 (11 ربيع الأول سنة 1256) يقول المسيو بازيلي قنصل الروسية في بيروت:

---

(1) يقول Hunter, W.P, Expedition to Syria, vol. I في ص 74 و76: "وزع بضعة آلاف من البندقيات على سكان الجبل الذين هبطوا بأعداد كبيرة إلى جونية للتعبير عن ولائهم للسلطان... وفي 20 أيلول توجه الضابط أوستن ربان السفينة الحربية سكيلوبس يرافقه السيد وود وجماعة من وجهاء الجبل إلى الساحل السوري بين بيروت وصيدا لكي يوزعوا مزيدًا من السلاح على الفلاحين..." راجع هامش رقم (6) ص (189) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

"يا حضرة المندوب

"لقد لفحت سموم الفتنة في لبنان من جرّاء إصدار إبرهيم باشا أمره بتجريد الموارنة من أسلحتهم رغمًا من توالي نصايح الأمير بشير له بتحامي جمعها لأنه كان يتوقع سوء مغبة ركوب هذه المخاطرة الغير [غير] المؤاتية. لا مراء إن استشفت قبائل الجبل إخوان الحرب من وراء جمع أسلحتهم – بينا أن محمد علي يسلح ويستنفر جميع المصريين للقتال – رغبة منه في تجنيدهم.

"فإنه منذ ثلاث سنوات بعد أن توفق إبرهيم باشا لنزع السلاح بالخديعة من الجبليين جرى توزيع 7 آلاف بندقية على الموارنة حصولاً على مساعدتهم في المسألة الحورانية وقد جاءت اليوم الحكومة تطلب بشدة استعادة هذه الأسلحة ومن المفترض أن إبرهيم باشا وقد زاده نجاحه الأول جرأة سيوجب الخدمة العسكرية على الرجال المسلحين بتلك البنادق"[1].

فوجود السلاح في أيدي العامة من الناس عاملٌ مهمٌ جدًا في زيادة حدة أي شجار وتحويله إلى تقاتل يسيل الدماء ويزهق الأرواح. فعندما يثور الإنسان في أي شجارٍ كثيرًا ما يتوقف عقله عن العمل لتحل محله غريزة الحيوان المتوحش، فنراه يتناول ما يتيسر له من أدوات سواء للدفاع عن نفسه أم لمهاجمة خصمه، وبقدر ما يتوفر له من أدوات يزداد عنف التقاتل وحدته، ولن يتورع بالتالي عن

(1) ص (5) من المجلد الأول: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983 (كانت الأولى في 1910).

استعمال حتى أشد أنواع السلاح فتكًا إذا ما توفر له...

ولا بدّ أيضًا من أن نقول لمن وزعوا السلاح على الفريقين، بحجة حماية كلٍّ منهم لفريقه: لو كان كلٌّ منكم يريد حقًّا حماية فريقه، ألم يكن من الأفضل أن تعملوا على إزالة أي خلافٍ بين أبناء الوطن الواحد، عوضًا عن أن تعطوهم سلاحًا يقتل به الأخ أخاه؟ هذا بالإضافة إلى ما تسببه الحروب من تدمير للأوطان. ولكن بالتأكيد كان لكلٍّ منهم غاية أو غايات من وراء "كرمه" في توزيع السلاح من دون ثمن أو بثمنٍ رمزي.

6 – سياسة الأمير بشير الثالث:

أما الأمير بشير الثالث فلم يحسن بدوره أيضًا، معاملة الدروز. بل تبع سياسة سلفه في الظلم والطغيان وكرهه للدروز. وفي هذا يقول كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام" في ص 73 منه: "ولو أن الأمير الجديد [يقصد بشير الثالث] أحسن السياسة لكان خضوع الدروز لأحكامه من الأمور السهلة ولكنه اشتهر بالقسوة والفظاظة في معاملته لأكابر الدروز وجعل يهينهم ويشتمهم كلما حضروا إليه في أمر ويتوعدهم بسلخ أملاكهم ونزع كل سلطة منهم ويعاملهم معاملة لا تطيقها نفوسهم و لم يتعودوها من قبل ذلك الحين"[1]. وفي ص 283: "وقد زاد الطنبور نغمة سفاه الأمير بشير [الثالث] واحتقاره لهم وذلك ما لم يعتادوه من أسلافه فأخذت الأمور تتعاظم بمداخلة

(1) ص (73) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983 المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

أهالي دير القمر في شؤون مشايخ الدروز بإقطاعهم ومساعدتهم للنصارى المختلطة من جميع الطوائف النصرانية بدون استثناء"[1].

7 – ضعف السلطنة العثمانية:

من أهم العوامل التي تجعل الأرض خصبة لاندلاع الفتن بجميع أشكالها هو ضعف الدولة ومؤسساتها، وخاصة إذا كان الشعب متنوع المكونات العرقية أو الدينية، مما يحدو بالأقليات إلى الاتجاه إلى التسلح واللجوء إلى الجهات الخارجية طلبًا للمساعدة والحماية. كما أن الدولة الضعيفة لا تستطيع منع الغريب من التدخل في شؤونها الداخلية خاصة إذا ساعدها ذاك الغريب في أمر مهم كما فعلت بريطانيا لطرد محمد علي من سوريا في العام 1840. وقد كانت السلطنة العثمانية في تلك الأيام تسمى "الرجل المريض" لما كان يعتريها من الضعف. وليس أدل على ضعفها في تلك المرحلة من أن جيش أحد ولاتها تمكن من دحر جيشها، برًّا وبحرًا، وكاد يحتل عاصمتها لولا تدخل الدول الأوروبية. وهذا ما جعل الباب مفتوحًا على مصراعيه أمام الدول الأوروبية ليس فقط للتدخل في كل شؤون السلطنة على مستوى الحكّام، بل سمح لكل من تلك الدول أيضًا، وانطلاقًا مما كان يسمى بالامتيازات الأجنبية، أن تحتضن الطائفة التي تدعي حمايتها وتشعر أبناءها بأنها تسعى لمصلحتهم بينما الواقع أن كلاً من تلك الدول لم يكن يهمها سوى مصلحتها. أضف إلى ذلك

(1) ص (283) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983، المنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

ما آل إليه حال أبناء جبل لبنان بسبب سياسة التفريق التي اتبعها كلٌّ من الأمير بشير الشهابي الثاني تبعًا لتحالفه مع محمد علي باشا، وهذا الأخير إبان احتلاله سوريا، والأمير بشير الشهابي الثالث الذي سار على درب سلفه.

8 – صراع الأوروبيين فيما بينهم وعلى تقسيم وتقاسم أملاك السلطنة:

لا شكَّ في أن الهدف الأول للدول الأجنبية التي تدخلت، أو حاولت التدخل، في شؤون الدولة العثمانية كان تحضيرًا لحصول كلٍّ منها على حصة من أملاك "الرجل المريض" والعمل على زيادتها.

وفي هذا يقول زين نور الدين زين:

"بعد أن افتتح الأتراك مدينة القسطنطينية سنة 1453، وضعت خططٌ عديدةٌ لتقسيم الإمبراطورية العثمانية. وقد جمع ت. ج. جُوارا الديبلوماسي الروماني، لا أقل من اثنتين وتسعين خطة من هذه الخطط[1]. ومن بينها خططٌ وضعها باباوات مشهورون، مثل البابا ليون العاشر، وكليمنت الثامن، وأخرى وضعها ملوك وأباطرة أمثال مكسيميليان الأول ونابوليون الأول وديبلوماسيون ورجال سياسة... ولكن عندما أخذت الإمبراطورية [العثمانية] تضعف وتتقهقر رويدًا رويدًا أصبحت المسألة الشرقية تعنى "بالمشكلات الدولية المترتبة على انحلال الإمبراطورية التركية الوشيك". وعند التحليل النهائي لهذه

(1) راجع: T.G. Djuwara, cent Projets de partage de la Turquie, p. 4. حاشية رقم 2، ص (189) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

المشكلات نجد أنها تدور حول سؤالٍ جوهري: أية دولة، أو دول، ستكون وارثة هذه الإمبراطورية الغنيّة الشاسعة المساحة، وتحل [محل] الإمبراطورية العثمانية لملء الفراغ الذي سيحدثه زوالها من الوجود"[1].

ويضيف: "في أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر وقع حادثان خطيران دفعا بالدول الأوروبية العظمى لتركيز اهتمامها على الشرق الأدنى، وحملاها على التدخل الفعال في شؤون المسألة الشرقية. وكان أولهما غزوة نابوليون لكل من مصر وسوريا (1798–1801). وثانيهما تعاظم قوة محمد علي العسكرية والانتصارات التي أحرزها في حروبه ضد السلطان محمود الثاني (1830–1840) وكان من نتائج الحادث الأول تدخل بريطانيا العسكري في مصر، ومن نتائج الحادث الثاني، أولا، تدخل روسيا، ومن ثم، تدخل فرنسا، وأخيرًا تدخل بريطانيا في شؤون الشرق الأدنى. وقد هُزم كلاهما، نابوليون ومحمد علي، واحتفظ السلطان العثماني بعرشه"[2].

ويكمل: "في سنة 1682 عندما زحف الصدر الأعظم، قرا مصطفى، على مدينة فيينا على رأس جيش قوامه أربعمائة ألف جندي "كان بعض الضباط وقواد ومهندسي ذلك الجيش من الفرنسيين

(1) ص (23) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (24) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

الذين أعارهم لويس الرابع عشر للخدمة في تركيا بغية أن يرى قوة الإمبراطورية النمساوية العسكرية تتمرغ بالتراب"[1].

ويقول واضعو كتاب تاريخ العرب:

"لقد أسفرت حملة إبراهيم باشا على سورية وحملة نابوليون على مصر عن نتائج متماثلة تمامًا من ناحية خاصة. فقد أوقفت هاتان الحملتان نظام السلطة اللامركزية القديم في كلا البلدين ودعتا إلى عهد جديد من عدم الاستقلال المركزي بل ضمتا البلدين إلى حظيرة مكائد الاستعمار الأجنبي فأخذت ميول الدول الكبرى الاستعمارية تتصادم فيهما أكثر مما تتصادم في أي بلد آخر. وكانت المنافسة أحدَّ ما يكون بين إنكلترا وفرنسا فقد كانت كلٌّ منهما تحاول جهدها أن تنال مركزًا ممتازًا في كلٍّ من البلدين ونفوذًا راجحًا في شؤونهما للسبب نفسه ألا وهو الحصول على أقصى فائدة لمساعدة التجارة مع الهند والشرق الأقصى. ويمكن أن تُردَّ كثير من حروب القرن التاسع عشر إلى بعض الأصول أو الأسباب في الشرق الأدنى. وقد كان من أسباب حرب القرم (1854–1856) اصطدام مطالب فرنسا وروسيا فيما يتعلق بحماية الأماكن المقدسة في فلسطين"[2].

وإبان معالجة وضع محمد علي باشا في العام 1840 **يقول رئيس مجلس الوزراء الفرنسي**، في مذكرته إلى السيد "غيزو" سفيره في

---

(1) حاشية رقم (30) ص (193) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (848) من كتاب: تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتّي والدكتور جبرايل جبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

لندن ما يلي: "فإن المصالح العليا الأوروبية مرتبطة باستمرار وجود تركيا. وهذه الإمبراطورية الماضية إلى الانحدار، لا يمكنها إلاّ أن تخدم مشاريع امتداد لجيرانها على حساب التوازن العام. وإذا ما سقطت، فإن هذا سيحدث تغييرًا على التوزيع الجغرافي الحالي للقوى العظمى، وسيعدل وجه العالم كلّه"[1].

ويتابع: "ومن نواح أخرى تدل المظاهر العفوية للقوى العظمى الموقعة معاهدة الخامس عشر من تموز [1840] بأننا نتفق تمامًا على "توازن أوروبا" وبأن وجهات نظرنا غير مختلفة، لكننا لا نستطيع أن نحيد عن هذه النتيجة في تصور الأمور وضمان الحفاظ على التوازن"[2].

9 – معارضة أوروبا قيام دولة جديدة وقوية في الشرق الأدنى:

"كانت الدول الأوربية قد قررت – في سبيل مصالحها الخاصة – أن تبقي على الإمبراطورية العثمانية لمدة من الزمن، قدرها بعضهم بحوالي القرن، فلم تسمح في أن تتعرض للأذى والهلاك. وقد اعتبرت هذه الدول أنّ قيام دولة فتية نشيطة يهدد نفوذها وخطوط مواصلاتها في الشرق... ولتحويل نظر محمد علي عن سوريا عملوا على إصدار فرمان في 13 شباط 1842 يجعل الباشوية في مصر وراثية في أسرة محمد علي الكبير. وصدر فرمان آخر في التاريخ نفسه يسند إلى محمد

(1) ص (556) من كتاب: الفرعون الأخير محمد علي، تأليف جيلبرت سينويه، ترجمة عبد السلام المودني، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت 2012، ص. ب. 5438–113.

(2) ص (557) من كتاب الفرعون الأخير محمد علي، تأليف جيلبرت سينويه، ترجمة عبد السلام المودني، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت 2012، ص. ب. 5438–113.

علي حكومة السودان"[1]. هذا بعدما ساعدت تلك الدول السلطان العثماني على طرده من سوريا في العام 1840.

ويقول محمد حسنين هيكل: "في نهاية سنة 1838 كتب قائد الجيوش البريطانية – وقاهر نابوليون – اللورد "ولنجتون" تقريرًا إلى اللورد "بالمرستون" يقول فيه، ملخصًا أحوال الشرق الأدنى، كما يلي:

"في هذا العام نشبت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات وصراعات سببها والي مصر. فقد استطاع "محمد علي" في عشر سنوات أن يُنشئ أسطولا وجيشًا يفوقان كل ما يحتاجه للضرورات الشرعية لحكومته. واستطاع بتصرفات متسمة بالطغيان والاضطهاد ضد شعبه أن ينشئ جيشًا في حجم ليس له ما يبرره. فقد جند مائة ألفِ رجلٍ وحشدهم ضد سيده الخليفة العثماني، ورمى جانبًا قِناع الولاء الذي يتظاهر به، وأعلن أمام قناصل الدول في مصر أنه يريد إعلان استقلال مصر، كما أنه يطالب بضمِّ سوريا. ونجح "محمد علي" فعلاً في أن يشنَّ حربًا ناجحة ضدَّ الخلافة، وتقدم بجيوشه حتى "نصيبين" على الحدود التركية السورية. ولم تقتصر قوة "محمد علي" على جيشه البري" وإنما تمكن أسطوله أيضًا من هزيمة الأسطول التركي. وخاف قائد الأسطول التركي بعد هزيمته أن يعود إلى إستانبول ويلقى عقابه، وهكذا قرر بعمل من أعمال الخيانة أن ينضمَّ بجيشه إلى دكتاتور مصر المنتصر، وأخذ أسطوله إلى الإسكندرية

(1) ص (822) من كتاب: تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتي والدكتور أدوَرد جرجي والدكتور جبرايل جبور، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت.

ووضع سفنه –وعليها عشرون ألف بحار – تحت تصرف "محمد علي". إنَّ هذه الأوضاع تتطلب تصرفاً سريعًا من الحكومة الإنجليزية كما تتطلب تدخلاً عاجلاً يتكفل بإعادة "الباشا" الذي يتصور نفسه لا يقهر، إلى عقله وإلى الخضوع والطاعة للسلطان".

ويتابع هيكل: "إنّ "بالمرستون" لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا لكي يقتنع بضرورة العمل وبأسرع ما يمكن أمام القوة الجديدة البازغة في مصر. وكان أكثر ما ضايقه أن "محمد علي" بأسطوله المصري الأصلي، وبالأسطول التركي الذي انضمَّ إليه، يمكن أن يصبح قوة مؤثرة في البحر الأبيض وحول شواطئه، فهو يستطيع إنشاء دولة عربية قوية في مصر، أو يستطيع أن يزحف إلى إستانبول لتجديد شباب الخلافة العثمانية، وفي الحالتين يخلق قوة تتصدى للمحاولات الأوروبية لاقتسام تركة العثمانيين، وهذه كلها أمورٌ لم تكن السياسة الإنجليزية على استعدادٍ لقبولها. وهكذا نشط "بالمرستون" يحشد تحالفًا ضد "محمد علي" تنضمُّ فيه إلى إنجلترا كل من روسيا والنمسا وبروسيا... وفي أجواء الحصار بدأ العملاء السّرِّيّون لبريطانيا يثيرون الفتن بين الطوائف والأقليات في الشام مستغلين الظروف الاقتصادية التي نتجت عن الحصار..."[1].

ولهذا رأينا أنَّ معظم الدول الأوروبية، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى، ولكن من دون فرنسا، قد عملت مجتمعة في العام 1840 على "مساعدة" الدولة العثمانية على طرد المصريين من سوريا، عندما

(1) ص (42) من كتاب: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (الجزء الأول)، محمد حسنين هيكل، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، مارس 1996.

أيقنت (تلك الدول) أن هناك دولة فتية قوية على وشك الحلـــول، في أهم منطقة على الكرة الأرضية، محل الدولة العثمانية، التي كانت قـــد أصبحت وشيكة الانهيار. مع الإشارة إلى أن فرنســـا، علـــى رغـــم ادعائها بأنها حليفة والي مصر محمد علي باشا، فلم تقدم له يومها أي مساعدة.

ولا بأس في أن نعود إلى ما ذكرناه سابقًا مما جـــاء في كتـــاب "مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام": "وقامت البلاد مـــع الأتراك والإنكليز لمحاربة الجيش المصري فلما رأى محمد علي باشا أن قوته لا تكفي لمحاربة تركيا وإنكلترا وأن فرانسا التي كانـــت تعـــده بالمساعدة لم تفِ بوعدها وتركته ساعة الحاجة مع أنها كانت تغريـــه على معاداة الإنكليز ومناوأتهم اضطرّ إلى التسليم بمطالـــب الدولـــة الإنكليزية والرجوع عن أملاك الدولة التركية وعلـــم أن الاغتـــرار بمواعيد الفرنساويين والاتكال عليهم ساعة الشدة من آيات الجهـــل المبين فعاد عن بلاد الشام وسواها وعادت الأمور إلى مـــا كانـــت عليه...)[1].

وهذا ما أكده أيضًا بورسييه في تقريره حول أحداث العام 1860 والمؤرخ في تموز (يوليو) 1860، في معرض كلامه عن طرد محمد علي من سوريا في العام 1840: "ومن دون أن تنقطع [يقصد فرنسا] عـــن الكلام في مصلحة باشا مصر، فقد تجنبت فرنسا مشاركته في الحرب

(1) ص (70) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عـــن نكبـــات الشـــام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983 والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

[بوجه تحالف أوروبا وتركيا] بل أيضًا لم ترسل له أي مساعدة سواء من الرجال أم المال. كما أمرت أسطولها المتمركز في الشرق بعدم الإتيان بأي حركة"[1].

وفي العام 1907 شكل رئيس وزراء بريطانيا، كامبل بانيرمان، لجنة خبراء في عدة حقول، من كلٍّ من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا، وكلفهم بدراسة أحوال الدول الأوروبية، وخاصة الاستعمارية منها، التي قاربت، حسب رأيه، حافة الزوال. وكانت نتيجة تقرير تلك اللجنة أن الخطر الأهم في سرعة زوال دولهم يكمن في العالم العربي، الذي يقطنه أناسٌ يتكلمون لغة واحدة، وغالبيتهم على ديانة واحدة، وأرضهم تحتوي على كميات هائلة من الموارد الطبيعية المتنوعة، ولا يفصل بينهم فاصل جغرافي، وقد بدأوا يصحون من سُبات طال أمده، ولا يحتاجون إلاّ إلى قيادة قويّةٍ حكيمةٍ ليقيموا دولة قوية على أهم بقاع الأرض استراتيجية، والتي ستتمدد بعدها حكمًا تجاه أوروبا.

أما الحل فكان التالي:

1- العمل المستمر على تفتيت وتقسيم وتفريق هؤلاء العرب.

2- تأسيس كيانات مصطنعة تكون تحت سيطرة الدول المُستَعمِرة.

---

(1) Mémoires sur les causes et origines des évènements de 1860 au Mont Liban Par A. Bourcier St. Chaffray, Juillet 1860، محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية (201PDF 65604 251 503) و(201 251 503 70032 PDF).

3- محاربة أيَّ نوع من أنواع الوحدة بينهم سواء كانت جغرافية أم ثقافية أم دينية أم تاريخية، والعمل من دون حدود على تقسيم المناطق المأهولة من أراضيهم.

4- ولإتمام ذلك اقْتُرِح أن تُؤسَّس في فلسطين دولة "فاصلة" (Buffer state) مأهولة من أناسٍ غرباء أقوياء، معادين لجيرانهم، أصدقاء للدول الأوروبية ومصالحها[1].

وهكذا كانت اتفاقية سايكس - بيكو، ووعد بلفور ثم قيام دولة إسرائيل. أما لماذا اختاروا فلسطين بالتحديد؟ فلأنها تشكل فاصلاً جغرافيًّا كاملاً فيما بين عرب آسيا وعرب إفريقيا.

وأعتقد بأنني لست بحاجة لسرد ما حصل ويحصل، سواء في القرن الماضي أم حاليًا، بدءاً في لبنان ثم العراق فليبيا واليمن وسوريا. ولا ندري ماذا تُخبِّئ لنا الأيام والسنوات القادمة.

10 - التدخل الأجنبي عامة:

يقول جرجي الحداد: "فمسألة سنة الستين [1860] وحركتها ومذبحتها هي ذات المسألة الشرقية التي نحن فيها الآن والتي يئن منها الشرق من مراكش غربًا إلى سوريا فمصر فالعراق فالهند شرقًا مع كل بلاد مُستعمَرة ومحتلّة وهي دس أوروبا المسيحية الاستعمارية السم بين الأهلين وإيجادهم مسألة الأقلية والأكثرية كالمسيحية

(1) The Origins of Imperial Israel, Part I, December 30, 2011-3 Comments-Israel: A Buffer against Arab Nationalism-By Andrew Gavin Marshall.
http://www.boilingfrogspost.com/2011/12/30/the-origins-of-imperial-israel-part-i/

والإسلامية والبوذية واليهودية الصهيونية للتفريق بينهم وإن هؤلاء المستعمرين ما هم في تلك الربوع إلا لإيجاد الأمن والنظام وحماية الأقلية من الأكثرية بينما هم الذين يدعون هذه الأقلية للخصام والاختلاف والنزاع الدائم والقتال والتعدي على جيرانهم ومواطنيهم لكي يثور هؤلاء عليهم بدورهم كما جرى في سنة الستين [1860] وأمس في فلسطين فيذبحونهم وحينئذٍ يدعي المستعمرون أنهم سيحتلون أو يحتلون تلك البلاد لحماية العباد وإيجاد النظام كما دفعوا الصهيونيين لقتال العرب وكما دفع الفرنسيس موارنة جبل لبنان إلى قتال الدروز ووجوب إفنائهم عن بكرة أبيهم فقام هؤلاء بهذا العمل أولاً خير قيام حتى التزم الدروز دفاعًا عن أنفسهم وكيانهم لأنهم الأقلية في الجبل، إلى ذبحهم بعدما ذُبحوا هم..."[1].

ويقول **الأمير شكيب أرسلان**: "ولكن إخواننا المسيحيين أو العقلاء منهم يتذكرون أن حماية هذه الدول [الأوروبية] لنصارى الأناضول، وكانوا لا يقلون عن سبعة ملايين نسمة، قد أدت بهؤلاء إلى خروجهم عن أوطانهم، وفقدهم جميع أملاكهم والنعمة التي كانوا يتمتعون بها من أعصر متطاولة.

(1) ص (35) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) سنة 1931. والكاتب هو صاحب ومحرر جريدة القلم الحديدي في سان باولو – البرازيل. وهو سبط الشيخ ناصيف اليازجي وخاله الشيخ إبراهيم اليازجي، وهما من أعلام النهضة العربية في القرن التاسع عشر.

وقد حاول الإنكليز قبل الحرب العامة [الحرب العالمية الأولى] أن يثيروا الأقباط على المسلمين في مصر، ليتخذوا من الأقباط أعوانًا لهم على استعمار إنكلترة للديار المصرية. إلا أن الأقباط بعد أن تذبذبوا بعض الشيء في البداية، رأوا الأصلح لهم الاتفاق مع المسلمين على صيانة استقلال مصر..."[1].

ولا ضير هنا من إدراج هذه الحكاية كما نشرها جرجي الحداد:

"إبان الثورة المصرية في العام 1919 ضد الاستعمار الإنكليزي، حذر الجنرالُ أللنبي بطريركَ الأقباط من المسلمين والاتفاق معهم، إذ قال له: إذا خرجت إنكلترا من مصر فالويل للمسيحيين، الذين هم أقلية، من المسلمين...

فقال له البطريرك:

"اسمع يا حضرة الجنرال، إن مصر كانت قديمًا للفراعنة المصريين ثم غزاها الفرس ولبثوا فيها مدة من الزمان إلى أن دالت دولتهم فخرجوا منها. وجاء، عوضًا عنهم، اليونان وهؤلاء ظلّوا في مصر إلى أن طردهم منها الرومانيون الذين ظلّوا فيها أيضًا إلى أن طردهم منها العرب. والعرب ظلّوا فيها إلى أن طردهم الترك الذين ظلّوا فيها إلى أن طردتموهم أنتم. ولا نعلم من سيطردكم... كل هذه الدول تعاقبت على مصر تأتي وتذهب لكن الأهلين باقون فيها. أليس أفضل يا حضرة الجنرال أن يتآخى الأهلون كما يليق بأبناء الوطن الواحد من أن تعتمد فئة منهم على حماية الأجنبي لها؟ وهل تريدون، بعد خروجكم من مصر، أن يتبعكم الأقباط إلى إنكلترا بمواشيهم وزرعهم

(1) من مقالة الأمير شكيب أرسلان بعنوان "العروبة جامعة كلية" المكتوبة في جنيف في شهر أيلول من العام 1940، ص 28 من المرجع السابق.

وقلعهم هربًا من المسلمين؟ فأنا يا حضرة الجنرال أقول لكم راجيًا أن تبلغوا دولتكم كلامي هذا وهو أن إذا كان استقلال مصر يتوقف على ذبح الأقباط عن بكرة أبيهم فنحن نرضى بهذا بكل سرور ونقدم ذواتنا ضحية حية على مذبح الوطن واستقلاله".

فلما سمع الجنرال أللنبي هذا الكلام من البطريرك صافحه وهز يده بشدة، وقد أعجب به وبوطنيته. وخرج ذلك البطريرك الحكيم من لدنه مشيعًا بالإكرام والاحترام الذي يستحقه. وقد علم المسلمون بهذا وما قاله البطريرك للجنرال فهللوا وكبروا وحلفوا هم والأقباط اليمين المعظمة على أنهم يكونون وإياهم إخوانًا في السراء والضراء. ومنذ ذلك اليوم والأقباط يعملون في القضية الوطنية كإخوانهم المسلمين تمامًا وبلا فرق ولهم المقام الأول في أرض مصر لأن ما جزاء الإحسان إلا الإحسان والإخلاص سوى المحبة والإخاء"[1].

ويحضرني هنا قول الجنرال أللنبي، عندما دخل إلى القدس على رأس الجيش البريطاني في كانون الأول (ديسمبر) 1917: "الآن انتهت الحروب الصليبية".

كما أنَّ من المشهور والمعروف أن الجنرال غورو، عندما دخل دمشق في تموز من العام 1920 على رأس الجيش الفرنسي، توجه إلى قبر صلاح الدين وقال كلمته المشهورة: "ها قد عدنا يا صلاح الدين".

(1) ص (99) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1991.

ويقول واضعو كتاب "تاريخ العرب" حين هاجم نابوليون بونابرت مصر: "ادعى نابوليون عند نزوله في بيان نشره باللغة العربية أن غرضه من غزو مصر هو إعادة سلطة الباب العالي ومعاقبة المماليك الذين اتهمهم في أنهم ليسوا مسلمين صالحين مثله ومثل جماعته الفرنسيين. أما غرضه الحقيقي فقد كان تسديد ضربة قاضية للإمبراطورية البريطانية بقطع خط مواصلاتها مع الشرق والسعي للسيطرة العالمية"[1].

ولا بأس أيضًا من العودة إلى ما أوردناه سابقًا مما جاء في كتاب "حسر اللثام عن نكبات الشام": "وفي هذا الحين بدأت الدسائس الدولية تهيئ البلاد للثورة والحرب. فبينما كان الأتراك يهيجون الدروز على النصارى والنصارى على الدروز قصد الانتقام من الطائفتين وصيرورة الجبل إلى قبضتهم رأت الدولة الإفرنسية أن آمالها خابت في بلاد الشام مرتين على يد الإنكليز فمرة طردت عساكرها منها على عهد نابوليون بونابارت ومرة عاد إبرهيم باشا عنها وكانت هي العضد الوحيد له بين دول أوروبا ولهذا رأت أن تعمل على تقوية حزبها وزيادة نفوذها توصلا إلى امتلاك البلاد بقوة هذا الحزب ومساعدته في أحد الأيام. ولما كان الموارنة ينتمون إليها وهم تحت حمايتها كما تقدم صار قناصل فرانسا يروحون ويجيئون إلى دار البطريرك الماروني ويخابرونه في ما يريدون وأرسلت إليه الدولة الإفرنسية في ذلك الحين نصف مليون فرنك فرنسي لينفقه في سبيل

(1) ص (819) من كتاب: تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتي والدكتور أدوَرد جرجي والدكتور جبرايل جبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

غاياته وغاياتها. وكان إرسال هذا المال على طريقة علنية فجعل الموارنة يفتخرون بالأمر ويتباهون بمساعدة فرانسا لهم ويقولون إنهم سوف يسحقون الدروز سحقًا وينزعون كل سلطة من أيديهم. وكان الأمراء الشهابيون قد صاروا تحت سلطة البطريرك وأعوانه وبدأوا بمساعدته على ما ينوي من مد نفوذ فرانسا ولكنهم لم يعلموا بالدسائس الإفرنسية إلا بعد حين"[1].

11 – الصراع الفرنسي البريطاني عامةً:

"بعد الهزيمة التي مني بها نابوليون، وبعد عودة آل بوربون (Bourbon) إلى العرش، نشأت، بين سنتي 1830 و1840، خلافات خطيرة بين بريطانيا العظمى وفرنسا حول شؤون الشرق الأدنى. ففي سنة 1832، وكذلك في سنة 1839، جرد محمد علي باشا، والي مصر القوي حملة عسكرية بقيادة ابنه إبرهيم باشا، ضد السلطان محمود فهزمت الأتراك في معركتين الأولى في قونية والثانية في كوتاهية في آسيا الصغرى"[2].

في سنة 1839 كتب السير هنري بولور يقول: "في الواقع، هناك سياسة فرنسية قديمة العهد في تقاليد وزارة الخارجية الفرنسية، وهي

---

(1) ص (74) من كتاب: مذبحة الجبل – حسر اللثام عن نكبات الشام، المطبوع في بيروت، الطبعة الثانية 1983 والمنسوب إلى شاهين مكاريوس – الناشر غير معروف – في أوله ما سمي "مدخل" مؤرخ في 1983/1/12 ومن دون اسم بل اكتفي بثلاثة أحرف (أ. م. ح).

(2) ص (24) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

اعتبارُ مصر جزءاً من الممتلكات الفرنسية أو اعتبارُها بلدًا يقع تحت الرعاية الفرنسية. وجاءت حملة نابوليون ترسخ هذه السياسة في ذهن الفرنسيين. وكان من الطبيعي أن تتبنى فرنسا مثل هذه السياسة إذا كانت تعتبر نفسها عدوة بريطانيا. ولكنها سياسة يستحيل على فرنسا أن تتبناها إذا كانت ترغب في عقد تحالف ودي ومخلص مع بريطانيا، ذلك لأن بريطانيا سيدة الهند لا يمكن لها أن تسمح لفرنسا أن تصبح سيدة البلدان الواقعة على الطريق المؤدية إلى الممتلكات الهندية بصورة مباشر أو غير مباشرة"[1].

ثمَّ "إن سياسة نابوليون الثالث الاستعمارية ونفوذ بريطانيا المتزايد في إستانبول، إلى جانب رفضها (أي بريطانيا) الموافقة على خطة ترمي إلى تجزئة الإمبراطورية العثمانية واقتسامها، حملت القيصر نيقولا على اتخاذ قرار بأن الوقت قد حان للقيام بمحاولة أخرى للوصول إلى تفاهم مع بريطانيا"[2].

ويقول واضعو كتاب تاريخ العرب في معرض كلامهم عن هجوم نابوليون بونابرت على مصر: "أما غرضه الحقيقي فقد كان تسديد ضربة قاضية للإمبراطورية البريطانية بقطع خط مواصلاتها

---

(1) راجع ص (25) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

Sir Henry Lytton Bulwer, The Life of Henry John Temple, Viscount Palmerston-With Selections from his Diaries and Correspondence, (London, 1870), vol. II, pp. 292-293.

(2) ص (28) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

مع الشرق والسعي للسيطرة العالمية"[1].

"لقد لفتت حملة نابوليون أنظار أوروبا إلى خط المواصلات البري للهند – المنسي نوعًا ما – وأثارت سلسلة من الحركات والمناورات جعلت الشرق الأدنى في وسط العاصفة التي كانت تثيرها السياسة الأوربية ومؤامراتها"[2].

ويقول يوسف إبرهيم يزبك: "وعلى أثر شطر الجبل إلى قائم مقاميتين واستئثار الأرسلانيين وأصدقائهم بالقائم مقامية الدرزية، واللمعيين وأصدقائهم بالقائم مقامية المسيحية دخل الحسد "الصامت" إلى قلوب سائر العائلات الإقطاعية، اغتنمه قنصل فرنسا في بيروت للانتقام من السياسة الإنكليزية التي أقصت الأمير بشيرًا الثاني عن الإمارة وعن لبنان كله، بالاتفاق مع العثمانيين. وتصدى له الكولونيل روز، قنصل إنكلترا في بيروت. فأثارا حربًا من نوع آخر، بأن راح كل منهما يؤلب العائلات التي ترى رأيه ويحضهم على كتابة العرائض والشكاوى. ولكن عوضًا عن أن توجه إلى حكومة بلادهم فكانت توجه إلى حكومتي فرنسا وبريطانيا"[3].

أما زين نور الدين زين فيقول: "والحق أن الهند كانت إمبراطورية بذاتها، وكانت الملكة فيكتوريا تلقب بإمبراطورة الهند.

---

(1) ص (819) من كتاب: تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتي والدكتور أدوَرد جرجي والدكتور جبرايل جبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

(2) ص (820) من كتاب: تاريخ العرب، الدكتور فيليب حتي والدكتور أدوَرد جرجي والدكتور جبرايل جبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.

(3) مجلة أوراق لبنانية، المجلد الثاني 1956، ص 497.

وليس من الإسراف بشيء إذا قلنا إن الدوافع الرئيسية في كل نشاط كانت بريطانيا تقوم به في منطقة الشرق الأدنى والأوسط، وفي كل نفوذ كانت تحاول بسطه في هذه المنطقة، كانت تنبع بشكلٍ ما من مصالحها في الهند"[1].

ويقول لويس باتديكور (Louis De Battdicour): "لتسهيل سبل التنفيذ [أي شق طريق مباشر إلى الهند عبر نهر الفرات أو البحر الأحمر] ولتجنب الصعوبات التي تجمعت من جانب والي مصر، صممت إنكلترا على السيطرة على البلد [جبل لبنان] بأن تبسط حمايتها عليه عوضًا عن فرنسا. حاولت أولاً بالتبشير الديني؛ فقام المبشرون الأنغليكان بتوزيع أناجيل وتأسيس كلية. لم يكن البطريرك الماروني بحاجة لطردهم سوى إلى إطلاق غضبه، فأحرقت الكتب، وأجبر الرسل الإنجيليون على الفرار سيرًا على الأقدام. وشملت اللعنة أيضًا السياح الأبرياء. فلم يعد يتمكن أي مسافر إنجليزي من التجول في الجبل.

"ولما رأت إنكلترا أنها لن تستطيع السيطرة على الموارنة المساكين، بالوسائل السلمية، وهم أناس متعلقون بشكل خرافي بالكاثوليكية، ويعشقون الفرنسيين، لجأت إلى وسائل أخرى. فاختلقت ما يخلفهم مع الدروز، واعتمدت على هؤلاء في مكافحة النفوذ الفرنسي"[2].

---

(1) ص (18) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) La France Au Liban, Louis De Battdicour, Paris. E. Dentu, Libraire 1 Challamel Aine-Palais, Royal. 5, rue Jacob, 5.
"Pour faciliter les moyens d'exécution et éviter les difficultés qu'elle

ويقول جرجي الحداد: "يتبين للقراء مع المعلومات التي بينتـــها آنفًا أن للإنكليز والإفرنسيين أماني وآمالاً استعمارية كبرى في البلاد العربية وهم في الوقت الذي كانوا فيه يعملون على استمالة العشـــائر والقبائل العربية إليهم كانوا يجهزونها بالسلاح والعتاد [الأعتدة] الحربية اللازمة دون أقل مقابل تقريبًا حتى أن التقرير الذي جاء إلى السلطان في آذار سنة 1320 [هـــ] دلّ على أن محمول الباخرة زفيروس الـــذي أُفرغ جنوبـــي بيروت بيع إلى عربان جبل الدروز بسعر مجيدي واحد لكل بندقية. مع أنّ الذين هرّبوها تناولوا ضعف هذا المبلغ عن كـــل بندقية لقاء إيصالها إلى الدروز المذكورين"[1].

---

rencontrait de la part du vice-roi d'Egypte, l'Angleterre résolut de dominer le pays en substituant son protectorat à celui de la France. Le prosélytisme religieux fut d'abord essayé; des missionnaires anglicans cherchèrent à distribuer des bibles et à fonder un collège. Le patriarche maronite n'eut besoin que de lancer contre eux les foudres de l'excommunication: les livres hérétiquies furent brûlés et les nouveaux apôtres évangéliques durent bientôt lâcher pied. L'anathéme avait enveloppé les plus innocents touristes; aucun voyageur anglais ne pouvait plus circuler dans la montagne.

L'Angleterre, voyant qu'elle ne pouvait pas éclairer les pauvres Maronites, qu'il n'y avait rien à faire par des voies pacifiques auprès de ces gens superstitieux attachés au catholicisme et entichés des Français, eut recours à d'autres moyens. Elle chercha à mettre le trouble chez les Maronites en les brouillant avec les Druses et à se faire de ces derniers son point d'appui pour combattre l'influence française".

(1) ص (84) من كتاب: البلاغ المبين في أصل حركة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين، جرجي الحداد، الطبعة الأولى، دار المعالي للطباعة والتوزيع، بيروت 1991. والكتاب في الأصل مطبوع في سان باولو (البرازيل) ســـنة 1931.

12 – الصراع الفرنسي البريطاني على قناة السويس:

يقول زين نور الدين زين: "من الأمور التي أحدثت ثـــورة في تاريخ وسائل النقل والمواصلات الدولية، والتي زادت من قيم الشرق الأدنى الاستراتيجية، كان افتتاح قناة السويس في شهر تشرين الثاني، عام 1869. كان شق القناة بادئ أمره امتيازًا فرنسيًا منحه الخـــديوي سعيد باشا، في شهر كانون الثاني، عام 1856 للســـيد فرديناننـــد دي لسبس"[1].

ويكمل: "أما الإنكليز فإنهم، في بادئ الأمر، أبدوا معارضـــة للمشروع بحد ذاته، ولشق القناة الفعلي. ذلك أنهم كانوا يـــؤثرون إنشاء خط حديدي من الإسكندرية إلى السويس. كما أنهم رفضوا شراء سهمٍ واحد من أصل الأسهم التي عرضها عليهم دي لســـبس وعددها ثمانون ألف [ألفًا] [حُدد رأس المال بـــ 400 ألف سهم قيمة السهم الواحد 500 فرنك فرنسي وضعت للبيـــع في الأســـواق في تشرين الثاني 1858 (راجـــع حاشـــية الكتـــاب عينـــه رقـــم 37 ص 194)]"[2].

وبعد أن رفضت إنكلترا عرض فردينان دو ليسيبس لاقتناعهـــا بعدم جدوى المشروع، عادت وصححت خطأها في العـــام 1875، بشرائها أسهم الخديوي إسماعيل باشا.

---

(1) ص (15) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولـــتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (35) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولـــتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

"في آذار (مارس) 1859 أبلغ دو ليسيبس محمد سعيد باشا بنيته بدء أعمال التحضير، إلاّ أنه عوضًا عن هذا قام، في 25 نيسان (أبريل) 1859، بضرب أول ضربة معول في أعمال الحفر، ما أثـــار ضـــجة كبرى. فكتب إليه الباشا بوجوب وقف الأعمال بانتظار الحصـــول على موافقة الباب العالي.

"أما ردة فعل الحكومة الإنكليزية فكانت عنيفة. فبعد أن قابـــل سفيرها في إسطنبول السلطان، بعث هذا الأخـــير إلى محمـــد علـــي بوجوب وقف الأعمال، وبرسالتين كانت أخيرتهمـــا في 19 أيلـــول (سبتمبر). وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1859 جاءه مختار بك، مبعوثًا من قبل الباب العالي ليؤكد له إرادة السلطان تلك.

"أمام هذا اتُخِذ القرار بإخلاء موقع العمل في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر). ولكن دو ليسيبس لجأ إلى نابوليون الثالث الذي بعث إلى سفيره في إسطنبول، توفنيـــل (Touvenel) في 23 تشـــرين الأول (أكتوبر) 1859، بتعليماته بمتابعة الموضوع. وبعد إلحاح هذا الأخـــير، ومعه قنصل فرنسا في مصر (Sabatier)، وعلى الرغم من جهود سفير إنكلترا (Bulwer) المعاكسة، وافق السلطان. وفي 26 كـــانون الأول (ديسمبر) أعلم الصدر الأعظم دو ليسيبس بهذا التحول. ولكـــن لم يصدر أي فرمان بذلك إلاّ بعد زمن طويل. إذ إن الحكومة العثمانيـــة علقت إصدار القرار الرسمي على توافق القوى المختلفة حول "الأمور السياسية التي قد تنتج عن تنفيذ مشروع قناة السويس تجاه مصر وتجاه أوروبا". وبعد مقابلته نابوليون الثالث في 7 شـــباط (فبرايـــر) 1860 كتب دو ليسيبس إلى محمد سعيد باشا بأنه يمكنه الاعتماد على دعم الحكومة الفرنسية. ثم عاد في الربيع إلى مصر للسهر علـــى عملـــه.

فاستؤنفت الأعمال ومن دون توقف"[1].

وهناك رأي يقول بأن فرنسا كانت وراء إشعال فتيل أحداث العام 1860 ردًّا على موقف السلطان العثماني من أعمال حفر القناة؛ بالإضافة إلى حلمها القديم في احتلال سوريا، وللانتقام لكرامتها التي أهينت بطرد حليفها محمد علي من سوريا في العام 1840. وإننا نرى في هذا الرأي، كثيرًا من المنطق. ويعززه ما يلي:

- حصلت حادثة بيت مري في 25 آب (أغسطس) 1859، وهي التي كانت الشرارة الأولى لأحداث 1860. وكان بدء أعمال الحفر في 25 نيسان (أبريل) 1859، والتي أمر السلطان بوقفها بعد هذا التاريخ بفترة قصيرة.
- حكاية حسين غضبان أبو شقرا في معرض حديثه عن بداية تلك الأحداث إذ يقول: "ثم إنّ أهالي إقليم جزين جعلوا يتآمرون ويتشاورون على ثأر القتيلين[2]... فقرَّ رأيهم على إرسال بعثة إلى ساحل صيدا يقتلون من يعنُّ لهم من الدروز وقد تألفت تلك البعثة من حنون قمر، شيخ شباب جزين، ومنصور مبارك، شيخ شباب بكاسين، وحبيب لطفي من بكاسين ورجل من قيتولي أجهل اسمه... ذهبوا إلى صيدا فقابلوا المسيو دريكالو القنصل الفرنسوي وأطلعوه على جلية أمرهم فاستحسن رأيهم وشددهم فيما وطنوا عليه

(1) (Pages 275-277): Histoire de la Nation Égyptienne, Gabriel Hanotaux, tome VI, Société de l'Histoire Nationale, Librairie Plon, 8, Rue Garancière, Paris, 6ème 1936.

(2) بعد حادثة بيت مري توالت أحداثٌ فردية. وبعد مقتل اثنين من دروز بعقلين قام ذووهما بقتل هذين الاثنين وهما من مسيحيي قيتولي.

النفوس ثم ضمَّ إلى عددهم رجلاً استدعاه من سقي صيدا اسمه يوسف أبو نوفل الأعرج فلما توارت بالحجاب وانسدل من الظلام الحجاب غادرت هذه الزمرة دار القنصلية الصيداوية أتوا فكمنوا في البستان الجديد الجاري على ملك يوسف أبو نوفل المار ذكره وأبناء أعمامه بجانب الرملة الحمراء... حتى مرّ أخيرًا ثلاثة مكارين ضعفاء فقراء من معاصر الفخار يسوقون حميرهم فاطلقوا الرصاص على اثنين منهم فأردوهما الردى وعمدوا إلى الثالث فصلموا أذنيه ومضوا مسرعين..."[1].

- وهل كان من قبيل الصدفة أن تتوافق تواريخ بدء المناوشات ثم بدء الأحداث مع تواريخ مراحل الأمر بإيقاف تنفيذ أعمال حفر قناة السويس ثم محاولات الفرنسيين مع السلطان للسماح بمعاودة تلك الأعمال كما رأينا آنفًا؟
- هل كان أيضًا من قبيل الصدفة أن تندلع تلك الأحداث في ذلك الوقت بعد أن كانت البلاد تنعم بهدوء نسبي منذ انتهاء أحداث الحركة الثانية في العام 1845؟[2].
- في شهر آب، سنة 1860، نزل جيش فرنسي في بيروت، وبذلك استعادت فرنسا مكانتها ونفوذها في البلاد "ذلك تعويضًا عن الخسارة الأدبية التي نزلت بها سنة 1840"

(1) ص (104) من كتاب: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، الراوي حسين غضبان أبو شقرا والمؤلف يوسف خطار أبو شقرا، تحقيق عارف أبو شقرا، بيروت 1952.

(2) ص (99) من المرجع السابق.

[بخروج جيوش محمد علي من سوريا] الأمر الذي كان بمثابة دعم للمطالبة "بحقهم" في الحصول على سوريا [كحصة] لهم من إرث "الرجل المريض" [تركيا][1]. إلاّ أنّ نزول جيشهم هذا كان مشروطًا من قبل الدول الأوروبية بالجلاء عن البلاد بعد ستة أشهر مددت ثلاثة أخرى.

13 – الصراع البريطاني الروسي:

وعنه **يقول زين نور الدين زين:** "في عالم تسيطر عليه السياسة القائمة على القوة، وفي عالمٍ تسيره الديبلوماسية الماكيافلية أصبح الشرق الأدنى من خلال القرن التاسع عشر مجالاً حيويًا لدولة عظمى، أو لأخرى، كما أصبح بيدقًا على رقعة الشطرنج تحركه المنافسات والمنازعات الدولية. في هذه البقعة كانت تصطرع المطامح التوسعية والمنافسات العنيفة بين الإمبراطوريات العظمى، سواء كانت إمبراطوريات شرقية أم غربية. وكان المتنافسان الجباران إلى سنوات عديدة بريطانيا العظمى وروسيا. وكان التخوف والشك والريبة تسيطر على جو المنافسة بينهما. ومثال على هذا نشير إلى ما ذكره اللورد بارنغتون (Barrington) في 23 تشرين الأول عام 1876، في تقريره الذي ضمنه مذكراته من أن اللورد بيكونسفيلد (Beaconsfield) قال، في خلال مناقشة الاقتراح القائل أن يُسمح لروسيا أن تحتل استانبول مقابل احتلال بريطانيا لمصر، وبذلك

(1) ص (31) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

تكون بريطانيا قد ضمنت سلامة "طريقنا إلى الهند": "إن الجواب على هذا الاقتراح جلي واضح. فإنه إذا استولى الروس على إستانبول فإنهم يستطيعون، في أي وقت يشاؤون، أن يبعثوا بجيوشهم عبر سوريا إلى مصب النيل، بعدها ماذا يكون النفع من احتلال مصر؟"[1].

14 – طمع روسيا وتدخلها:

"إن قيام مصالح للاتحاد السوفياتي في منطقة الشرق الأدنى والأوسط ليس بالأمر المحدث في العلاقات الدولية. ففي عهود القياصرة كانت روسيا تعلن للملأ أنها حامية الأقليات العرقية من الرعايا في الإمبراطورية العثمانية – لا سيما السلافية منها – وحامية الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وأتباعها. وفي 29 أيار من سنة 1453 عندما احتل الأتراك "روما الجديدة التي هي إستانبول" أي بيزنطية القديمة – مقر المسيحية الشرقية وموطنها العظيم – فإن روسيا لم تقنع بتنصيب نفسها الزعيمة الدينية للمسيحية الأرثوذكسية عن إستانبول. ولكن هذه العاصمة العظيمة، إستانبول، أصبحت مدينة يعتبرها قياصرة روسيا مطمحًا من مطامحهم، وكذلك للدردنيل، ومياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة"[2].

---

(1) ص (19) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف: زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

(2) ص (18) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، تأليف زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

ونعيد ما أوردناه سابقًا مما جاء في رسالة بعث بها السير هـــــ. بولور (Bulwer) السفير البريطاني إلى وزير الخارجية البريطانية اللورد ج. رسل (Russell) من استانبول مؤرخة 17 تمـــوز 1860 يقـــول: "هناك رأي حول هذه القضية (يعني أحـــداث 1860) يقـــول بـــأن الأسباب التي جرت المصائب والفواجع تعود إلى الدسائس التي كان خديوي مصر يحوكها، وإلى الدسائس التي كان يدبرها الموارنة مـــع الموظفين الفرنسيين، وأيضًا دسائس الحكومة الروسية"[1].

وكما رأينا في فقرة الامتيازات الخاصة بالأجانب التي أعطتـــها الدولة العثمانية لبعض الدول الأجنبية، ومنها روسيا، فقد "ســـنحت لهذه الأخيرة فرصة مؤاتية للتدخل في شؤون تركيا الداخلية". إلا أن أثر تدخل روسيا على مجرى تلك الأحداث المؤسفة، كان بالتأكيـــد أقلّ بكثير من فعل تدخل فرنسا أو بريطانيا.

(1) ص (31) من كتاب: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولـــتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.

الخاتمة

تشكل جبال لبنان قلعة طبيعية كبرى ومهمة جدًّا، على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. من تمكن من السيطرة عليها سهلت عليه السيطرة على سوريا[1] بالكامل. هذه البقعة الواسعة من الأرض التي تعدُّ من أهم، إن لم نقل أهم، البقاع على الكرة الأرضية، إن لما تحويه من خيرات وموارد طبيعية أم لموقعها الاستراتيجي الذي يعتبر بحق بوابة قارات العالم القديم الثلاث. وهذا ما جعل تلك الجبال، في القرن التاسع عشر، هدفًا للسيطرة عليها من قبل كلٍّ من الفرنسيين والإنكليز ومحمد علي باشا، والي مصر، بالإضافة إلى رغبة روسيا، منذ القِدم، في الوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة، ورغبة الدولة العثمانية في التخلص من نظام الإمارة اللبنانية، بالإضافة إلى عمل الأمير بشير الشهابي الثاني الدؤوب للمحافظة على موقعه كحاكم لهذه الإمارة وبوسائل شتى وأهمها التفريق بين أبناء البلد الواحد.

ولما كان أصحاب تلك الجبال أناسًا صعبي المراس، كمسالك جبالهم، وشديدي التعلق بأرضهم يعيشون بوئام تام لا يفرق بينهم اختلاف الدين، فكان يتوجب على أولئك الطامعين

(1) لمعرفة حدود سوريا في هذا البحث يرجى العودة إلى فقرة "موقعها" في فصل "لمحة عن الإمارة اللبنانية".

إضعافهم بوسائل شتى.

ولذا مُلئت قلوب اللبنانيين، دروزًا وموارنة، بالتفرقة والحقد والكره والعداوة من قبل الأمير بشير الثاني، وببطشه وظلمه وطغيانه، للحفاظ على كرسيه. ومن محمد علي باشا لاحتلال سوريا ثم لقمع الثورات التي قامت بوجهه. ومن فرنسا لنيتها القديمة باحتلال سوريا لقطع طريق الهند على بريطانيا عدوها التقليدية، ثم انتقامًا من الباب العالي لأمره بوقف أعمال حفر قناة السويس، في العام 1859، وتأخره في إصدار الفرمان بالسماح بعودة تلك الأعمال. ومن بريطانيا لطمعها هي أيضًا باحتلال سوريا لتأمين طريقها إلى الهند وللوقوف بوجه أعدائها الفرنسيين وخوفًا من بلوغ الروس مياه البحر الأبيض المتوسط. ومن هؤلاء الآخرين لتحقيق غايتهم تلك. بالإضافة إلى ضعف الدولة العثمانية. ولا ننسى ما غرسته الإرساليات الأجنبية في نفوس أبناء الوطن الواحد خدمة لمصالح الدول التي بعثت بها إلى الشرق عامة ولبنان خاصة. فأقنعت فرنسا، وإرسالياتها، الموارنةَ بأنهم مواطنون فرنسيون يعيشون في لبنان الذي يخصهم وحدهم، وأقنع البريطانيون، وبعثاتُهم، الدروزَ بأن الموارنة، ومن ورائهم فرنسا، يريدون طردهم من جبالهم ومن الإمارة التي أسسوها بدمائهم منذ مئات السنين. بالإضافة إلى ما "قدمته بسخاء" تلك الدول، من الأسلحة والأموال، كلٌّ منها على الفريق الذي تدعي حمايته.

وإذا كان الحاكم ضعيفًا تصبح البلادُ أرضًا مفتوحة لتدخل القوى الخارجية في شؤونها الداخلية سواء الكبيرة منها أم الصغيرة. وإذا كان الحاكم جائرًا تطلع الشعب إلى من يساعده للخلاص منه ومن جوره وظلمه حتى لو كان ذاك عدوًّا. فكيف إذا جمع هذا

الحاكم الضعف إلى الجور؟ وفي رأينا أنه لا يكون جائرًا إلاّ إذا كان خائفًا على كرسيه، لأي سبب من الأسباب، والخوف أهم صفات الضعفاء. وإلى جانب الجور فسيعمل على استمالة مؤيدين له بطرقٍ شتى حتى لو كانت ضد مصلحة البلاد لأن مصلحته الخاصة أهم منً مصالح بلاده. فيتفرق الشعب، بجهله عواقبَ الأمور، بين مؤيد له ومعارض. فلا يبقى ما يمنع أبناء البلد الواحد من التقاتل فيما بينهم، خاصة إذا ما توافقت معها مصالح الدول الأخرى، وتجمعت الأسباب والعوامل التي من شأنها أن تجعل البلاد ساحة لتضارب مصالح الآخرين. وعندما يتوفر السلاح والذخائر "بسخاء" من الدول ذوات المصالح لتحقيق غاياتها، بالإضافة إلى جهل العامة بمصالح بلادهم وبما يحاك لهم، فستتحول تلك الأرض بسهولة إلى ساحة لحروب، قد تشعلها أتفه الأسباب، أهليّةٍ في ظاهرها، بينما هي في حقيقتها لخدمة مصالح تلك الدول، جيوشها أبناء الوطن الواحد، فيجبل ترابه بدمائهم، سواء المتقاتلين منهم أم الأبرياء، صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً.

والأمثلة لم تزل ماثلة أمامنا في ما جرى في لبنان في القرن الماضي، وما زال يجري في العراق وليبيا وسوريا واليمن.

وكما كانت أحداث القرن التاسع عشر في لبنان مقدمة لما حصل بعد الحرب العالمية الأولى من تقسيم للبلاد العربية جمعاء واقتطاع أجزاء منها، فوهبت فلسطين إلى اليهود وإسكندرون إلى تركيا. فما يجري في أيامنا هذه، من تفتيت لتلك البلدان لا ندري نهايته، كانت مقدمته، حسب رأينا، أيضًا ما جرى من أحداث في لبنان ابتداءً من العام 1975.

فلو كان حكام البلاد العربية اليوم على مستوى المسؤولية لأدركوا أن ما يجري حاليًا هو أكبر بكثير من أن يكون مؤامرات على كراسيهم أو على أنظمتهم الزائلة، ولبذلوا الغالي قبل الرخيص، ولضحوا بأنفسهم وأولادهم قبل كراسيهم، في سبيل سلامة شعوبهم وبلادهم.

كما لا يمكننا أيضًا تبرئة المثقفين من أبنائها من مسؤولية تردي أوضاع أوطانهم على جميع الصعد، لتقاعسهم عن توجيه وتوعية العامة الذين يقودهم جهلهم، انقياد الغنم لرعاتها، لمن يستغلون الأديان والمذاهب والعصبيات العرقية، الذين نصبوا أنفسهم حماة لمصالح تلك الطوائف بينما هم في الواقع لا يأبهون إلا لمصالحهم الخاصة، فأصبح الولاء والانتماء إلى الطائفة لا إلى الوطن، وتفرق الشعب شيعًا وتفتَّت جماعات متناحرة لا ثقة بينها، تخوِّن بعضها بعضًا، فيصبح اختراق صفوفهم في غاية السهولة، وتتحول البلاد ساحاتٍ لحروب الآخرين، جنودهم أبناء الوطن الواحد، يتذابحون "بإخلاصٍ وحماسةٍ" تبعًا لأوامر الغرباء ومصالحهم، وقد يكون أحد هؤلاء عدوًّا.

مراجع البحث

- أوراق لبنانية 1955–1958، يوسف إبرهيم يزبك، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983.
- مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان 1983. (كانت الطبعة الأولى في 1910).
- تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف، فواز طرابلسي، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، طبعة منقحة، تشرين الأول 2008 (الأولى في شباط 2008).
- تاريخ العرب، حتي وجرجي وجبور، الطبعة العاشرة، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 2000.
- الصراع الدولي في الشرق الأوسط، زين نور الدين زين، الطبعة الثالثة، دار النهار للنشر، بيروت 1977.
- نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، الطبعة الرابعة، دار النهار للنشر، بيروت 1986.
- الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، يوسف أبو شقرا، تحقيق عارف أبو شقرا، بيروت 1952.
- أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا، تحقيق ونشر أسامه أبو شقرا، بيروت 2011.

- مقدمة ابن خلدون، العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (784-808هـ)، ضبط وشرح وتقديم د. محمد الإسكندراني، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1998.
- مصادر التاريخ اللبناني، الجزء الثالث، وثائق سياسية واجتماعية، سليمان أبو عز الدين، تحرير الدكتورة نجلا أبو عز الدين، الطبعة الأولى، دار أمواج، بيروت، شباط 2002.
- الدروز في التاريخ، نجلا أبو عز الدين، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، كانون الثاني 1990.
- ذكريات يوسف الحكيم - سورية والعهد العثماني، الطبعة الرابعة، دار النهار للنشر، 1991.
- أصل الموحدين الدروز، أمين طليع، الطبعة الثالثة، توزيع معرض الشوف الدائم للكتاب، 2001.
- مذبحة الجبل - حسر اللثام عن نكبات الشام، منسوب إلى شاهين مكاريوس، الطبعة الثانية 1983. المطبوع أولاً في القاهرة 1895 من دون ذكر لاسم المؤلف.
- مجمع المسرات، الدكتور شاكر الخوري 1908، تقديم د. الياس قطّار، طبعة ثانية، دار لحد خاطر، بيروت 1985.
- البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين، جرجي الحداد، صاحب ومحرر جريدة القلم الحديدي سان باولو البرازيل 1931 (الطبعة الأولى، إعداد محمود موسى، دار المعالي للطباعة والنشر، بيروت، حزيران 1991).
- الفرعون الأخير محمد علي، تأليف جيلبرت سينويه، ترجمة عبد السلام المودني، الطبعة الأولى 2012، منشورات الجمل ص. ب. 113/5438، بيروت، لبنان.

- محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية.
- باقة بنفسج، جورج سليم عبد الأحد، الطبعة الأولى، دار نلسن، بيروت 2016.
- المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (الجـــزء الأول)، محمـــد حسنين هيكل، الطبعـــة الأولى، مـــارس 1996، دار الشـــروق، القاهرة.
- Histoire de la Nation Égyptienne, Gabriel Hanotaux, tome VI, Société de l'Histoire Nationale - Librairie Plon - 8. Rue Garancière, Paris 6eme, 1936.
- Mémoires sur les causes et origines des évènements de 1860 au Mont Liban, Par A. Bourcier St. Chaffray (Juillet 1860), – محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية –
- LA FRANCE AU LIBAN, LOUIS DE BATTDICOUR, PARIS, E. DENTU, LIBRAIRE 1 CHALLAMEL AINE - Palais - Royal. 5, rue Jacob, 5. http://www.archive.org/stream/lafranceauliban00baudgoog/lafranceauliban00baudgoog_djvu.txt

أعمال سابقة للمؤلف

- دليل الموضوعات في آيات القرآن الكريم، الطبعة الأولى، بيروت 2001.
- أصول تطبيق قانون الضريبة على القيمة المضافة، الطبعة الأولى، بيروت 2002. الطبعة الثانية، بيروت 2004.
- المسيح (عليه الصلاة والسلام) في القرآن، الطبعة الأولى، بيروت 2004. والمترجم فيما بعد إلى الفرنسية تحت عنوان:
Jésus - Christ et la Vierge Marie dans le Coran, 1ere édition, Beyrouth 2013.
- الاقتصاد في القرآن، الطبعة الأولى، بيروت 2007.
- تحقيق كتاب: أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا، الطبعة الأولى، بيروت 2011.
- حنين الحب، قصص قصيرة، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2016.